الفصل الرابع
المكتبات والمجتمع
المصري القديم

مصر واحة طويلة صنعها النيل على امتداد آلاف السنين، وقد مارس المصريون الصيد والرعي عندما كانوا قبائل متفرقة تعيش على شواطئ النيل وحوله مستنقعات الدلتا، ولكنهم انتقلوا بسرعة إلى الزراعة بفضل النيل حيث قام النيل بدور رئيسي في تكوين المجتمع المصري الموحد، فقد أدت الزراعة إلى استقرار القبائل وتكوين القرى ونشأة المدن حول انعقاد الأسواق. فقد عرف المصريون القدماء نظام المدينة بوصفه (وحدة سياسية) قبل أن يعرفه اليونان وكانت مدنهم تتمتع باستقلال ذاتي.

وقد توحدت البلاد على يد الملك مينا ٣٢٠٠ ق.م وقضى على الفرقة نهائيًا ومنذ ذلك الوقت تمسك المصريون بهذه الصورة الوحيدة للمجتمع المصري، ولم يقبلوا صورة أخرى برضاهم بل كافحوا كل ألوان التجزئة والفرقة في تاريخهم.

وهذا الإصرار على وحدة المجتمع المصري هو أول صفات هذا المجتمع وهو سر حضارته المبكرة واستمرار شخصيته، رغم موقعه كمعبر بين الشرق والغرب فقد عمل هذا الإصرار على وحدة المجتمع طوال التاريخ المصري بصورة فريدة، وبذلك يسر التجانس العنصري والثقافي وأكد التعاون الاجتماعي ووطد النظم الاجتماعية على مستوى الدولة[١].

وبفضل الزراعة وارتباطها بفيضان النيل اهتدى المصريون إلى التقويم الشمسي حيث جعلوا السنة ٣٦٥ يومًا، كما اهتدوا إلى العلوم الهندسية الخاصة بإنشاء الترع وتنظيم الري وتخطيط الأحواض وبناء المدن وتشييد المعابد والهياكل والمقابر والأهرامات وابتكروا الآلات الزراعية ومخازن الحبوب، كما اتقنوا منذ وقت مبكر بعض الصناعات كالفخار والجلود وغيرها وعرفوا الكتابة وصناعة الورق، وقد بلغ فن النحت المصري

---

(١) عبد المجيد عبد الرحيم، تطور الفكر الاجتماعي، مكتبة الانجلو المصرية، بدون تاريخ، ص١٧،١٦.

والعمارة كما لهما في الدولة القديمة لارتباطهما بالدين[1].

- النظـام الأسري: حظيت النسـاء فـي مصـر القديمـة بالمسـاواة الكاملة تقريبًا مع الرجال. وتمتعن باحترام كبير، حيث الوضع الاجتماعي يحدده مستوى الشخص في السلم الاجتماعي وليس نـوع الجـنس وتمتعـت نسـاء مصـر بقـدر أكبـر مـن الحريـة والحقـوق والامتيـازات مقارنـة بمـا عرفتـه نسـاء الإغريـق. وحظـي عـدد وافـر مـن الربـات بالتقديس عبـر تـاريخ مصـر. وكان إظهار عدم الاحترام لامرأة، وفقًا لقانون (ماعت) يعني معارضة أسس المعتقدات المصرية والوجود المطلق.

وأجاز المصريون للمرأة أن تصبح وريثة للعرش، إلا أن الرجل الذي تختاره زوجًا لها هو الذي يصبح حاكمًا أو فرعونًا. وتتمثل مهمتها في الحفاظ على الدم الملكي واستمراره.

وتمتعـت النسـاء بالعديـد مـن الحقـوق القانونيـة، مثـل المشاركة في التعاملات التجارية، وامتلاك الأراضي والعقارات الخاصة، وإدارتها وبيعها. وكان للناس حق ترتيب عمليات التبني، وتحرير العبيد، وصياغة التسويات القانونية، وإبرام التعاقدات. وكن يشهدن في المحاكم، ويقمن الدعاوي ضد أطراف آخرين، ويمثلن أنفسهن في المنازعات القانونية من دون حضور قريب أو ممثل لها من الرجال.

وفتح باب العديد من الوظائف المهنية أمام النساء مثل النساجة والحياكة والقابلة ومستشارة الفرعون، واستطعن أيضًا تولى مناصب عليا في المعبد، مثل الراقصات أو كبيرة الكاهنات وهو منصب بالغ الاحترام.

ولم يكن مستغربًا أو محظورًا أن ترتقي امرأة عصامية من ناحية الوضع الاجتماعي أو المنصب فمن بين النساء الشهيرات

---

(١) مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٩، ص١٢،٢٣.

من خارج الأسرة الملكية امرأة تدعى (بنِتِ) بكسر النون والباء. كانت متزوجة من حاكم أحد الأقاليم خلال عهد الأسرة السادسة، وقد حملت (بنِ ِتِ) أعلى الألقاب مكانة، لقب الحاكم، والقاضي ووزير الفرعون.

واتيح للنساء العمل كاتبات وطبيبات وأن كن بأعداد أقل من نظرائهم الرجال. وترجع السجلات التي ورد فيها أسماء طبيبات إلى الدولة القديمة. ومن هؤلاء الطبيبات السيدة (بيشيشت) التي عاشت إبان عهد الأسرة الخامسة، وحملت لقب (رئيسة الأطباء) وفقًا للنقش الموجود على شاهد قبرها.(١)

- الحياة العائلية: حظيت علاقة الزواج بأقصى قدر من الاحترام.

ويتم الزواج عادة بين نفس الطبقة الاجتماعية، غير أن قواعد خاصة تطبق على أفراد الطبقة العليا، وبوجه خاص داخل الأسرة الملكية، حيث يجوز للرجل اتخاذ أكثر من زوجة واحدة، كما يحدث الزواج غالبًا بين أبناء العمومة وغيرهم من ذوي القربى القريبين (أو البعيدين). وكانت حالات الاقتران بين الأخوة تحدث داخل الأسرة الملكية فقط. فتتزوج الابنة الكبرى للفرعون غالبًا من شقيقها أو أخيها غير الشقيق. بهدف الحفاظ على السلالة الملكية.

وفي مصر القديمة، كان الزوجان يشيران في حب على بعضهما البعض بلفظ (أخ) أو (أخت) وأثناء الدولة الحديثة، كانت

---

(١) انارويز، روح مصر القديمة، ترجمة إكرام يوسف، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦، ص٣١.

مزيد من التفاصيل:

- Simpson. W. K. The Litrature of Ancient Egypt, London, 1971.

لفظة (أختي) مرادفًا للفظة (عزيزتي) أو (زوجتي).

- زوجة واحدة ثم زوجات: كان للفرعون أن يتخذ زوجة رئيسية، وعدة زوجات أقل مرتبة يتخذهن من بناته أو أخواته، فضلاً عن العديد من الخليلات. وكان لدى (رمسيس الثاني) سبع زوجات أساسيات، وعدة زوجات ثانويات، وجناح للنساء يزخر بالخليلات الشرعيات ويعتقد أن وجود أجنحة للنساء يرجع إلى عصر الأسرات الأولى. فكانت الأميرات الأجنبيات يصبحن غالبًا حريم الفرعون، كزوجات سياسات أرسلهن آباؤهن لتعزيز التحالف الدبلوماسي بين الحاكمين.

وشملت المرشحات للحريم الملكي الراقصات، وغيرهم من الجميلات اللاتي يلفتن نظر الفرعون ويجوز أن يحسب أبناؤهن ضمن الأسرة الملكية، أو لا بناء على اختيار الفرعون.

وكانت الفتيات يتزوجن في سن مبكرة تتراوح بين الثالثة عشر والخامسة عشرة، وغالبًا ما تتزوج بنات الفلاحين في الثانية عشرة، وبوصولهن إلى سن الثلاثين يكن قد أصبحن جدات. وكان المتوقع أن يتخذ الشاب زوجة له بمجرد أن يمتلك السبل المادية لإعالة حياتهما معًا وبناء أسرة.[1]

وبينما اعتبر اختيار الشريك اختيارًا حرًا للزوجين عادة، فإن معظم الارتباطات يرتبها زوج المستقبل مع والد العروس الصغيرة، ومع ذلك يتعين موافقة كل من المرأة والرجل على الزواج الذي يتم بموجب عقد يجوز إلغاؤه أو إنهاؤه فيما بعد بالطلاق. وخلال الحقبة المتأخرة أصبحت لعقود الزواج صياغة متعارف عليها.

وليس هناك دليل يثبت وجود حفلات للزواج في مصر القديمة. إنما يقام حفل كبير بعد الزفاف يتلقى فيه المتزوجان حديثًا الهدايا ويشاركان مع الأسرة والأصدقاء في الاحتفال بالزواج. وتنتقل العروس إلى بيت الزوج، الذي يضم غالبًا عائلته أيضًا. وتتولى العروس الجديدة دورها باعتبارها (سيدة البيت) أو (بينت

(١) أناروز، روح مصر القديمة، مرجع سابق، ص٣٤، ٣٥.

بر) ولا يسع المرء سوى أن يتعجب من قاموس الحياة في تلك الأسر الجديدة، حيث ينهي اعتبار الحماة كسيدة لبيتها.

- الطلاق: ولم يكن الطلاق شائعًا بين المصريين القدماء، ولكن في حالة حدوثه يحق للزوجة السابقة الاحتفاظ بما كانت تملكه عند زواجها بالإضافة إلى ثلث العقارات والممتلكات المشتركة التي كسبها الزوجان أثناء فترة الزواج. وتؤول حضانة الأبناء للأم (مات). وكان الطلاق في حد ذاته شأنًا بسيطًا وخاصًا، يتمثل في إعلان بإنهاء العقد والارتباط أمام شهود وبمجرد إنهاء هذا الإجراء يصبح كل من الشريكين حرًا في الزواج مرة أخرى.

وإذا كانت الزوجة غير مخلصة لا تستحق المساندة، بل إنها غالبًا ما تخضع لعقوبة جدع الأنف المؤلمة والمشوهة. ولأن الخيانة من جانب المرأة من شأنها إثارة شكوك حول أبوة الطفل، فإن النساء تتعرض لعقوبة أشد من عقوبة الرجال بسبب الخيانة.

وفي حالة وفاة الزوج، تستحق الزوجة ثلثي أملاكهما المشتركة، ويقسم الثلث الباقي بين الأبناء ويليهم أخوة الزوج. وقبل وفاة الرجل، يجوز له أن يتبنى زوجته كابنة له (سيت) حتى ترث نصيبًا أكبر، وليس فقط كقرينة له، بل كوريثة أيضًا.[١]

واعتبر المصريون إنجاب وريث ذكر مهمة رئيسية للزوجة ويشكل الفشل في أدائها سبباً للطلاق. وكان الزوجان يشجعان على الإنجاب بمجرد زواجهما. فالأبناء يعتبرون أعظم النعم، وكانوا يقولون أن الآلهة تبتسم لأجل أولئك الذين يعولون أسراً كبيرة العدد. ويمكن لبعض الأسر أن تفاخر بأن لديها ١٠ أو ١٥ طفلاً بينما كانت الآلهة تتجهم في وجه البيت الذي يخلو من أصوات ضحك الأطفال وكان من المفترض أن يلجأ الزوجان العقيمان إلى التبني إذا لزم الأمر لتعويض النقص فأي إعجاب واحترام ناله رمسيس الثاني، وهو الذي يردد أنه كان أبا لمائة ابن على الأقل وخمسين ابنه.

وإذا وجد زوجان صعوبة في الإنجاب، فبإمكانهما اللجوء للسحر. وتشمل طقوسه جلوس المرأة الراغبة في الحمل في وضع

---

(١) أنارويز، مرجع سابق، ص٣٥.

القرفصاء فوق بخار مزيج من الزيت والبخور فإذا تقيأت من الروائح الناجمة عن هذا الخليط تعتبر قادرة على الحمل، أما إذا لم تتقيأ، فيعتقد أن رائحة المزيج حبست داخل جسد المرأة بما يمنعها من الحمل. ويتضرع الزوجان المحرومان من الإنجاب للإلهات طلباً للعون الإلهي. وتكتب الرسائل وتوضع فوق مقابر الأقارب الراحلين. وإذا فشلت كل هذه السبل، يصبح التبني البديل الأخير.

وكان للأبناء أهمية قصوى، فهم يعينون الوالدين عندما يتقدمان في السن. وفي حال عجز الزوجين عن إنجاب ذكر يرعاهما عندما يتقدم بهما العمر، يجوز للزوج بموافقة الزوجة إنجاب ابن من زوجة ثانوية أو ذات منزله أدنى، وربما تكون خادمة أو جارية فإذا جاء الطفل ذكر يتبناه الأب وزوجته العاقر. وإذا لم يكن للفرعون أبناء ذكور تنتقل وراثة العرش إلى الرجل الذي تتزوج منه كبرى بناته، أو إلى ابن ينجبه الفرعون من زوجة ثانوية.

- الأطفال هم المستقبل: تعتمد تسمية الطفل على أسماء المعبودات، التي يعتقد أنها تحمي الأطفال الذين يحملون أسماءها، وعلى سبيل المثال ميريت أتون (محبوبة أتون) وسيت آمون (ابنة أمون) ورع حتب (رع راض). وكثيراً ما تختار الأسماء لتضفي على الأبناء صفات معينة يرغب فيها الوالدين، فعلي سبيل المثال. نفرحتب (جميلة وراضية)، وسينب (وافر الصحة). كما شاع إطلاق أسماء تدليل الحيوانات الأليفة على الأبناء مثل (ميوشيرى) (القطيطه الصغيرة).

وفي طبقات المجتمع الدنيا تتولي الأم تربية الأطفال، بينما في الطبقات العليا توفر الخادمات الرعاية اليومية للطفل. ويتولي الأبناء مسئولياتهم في الحياة عند سن مبكرة، ويسلك البنين والبنات مسالك مختلفة. فالبنون يتعلمون تجارة أو حرفه من الأب (ات) أو من عضو أخر من أعضاء الأسرة أو من حرفي أو فنان أو نجار أو صانع فخار. ويتوقع من الصبى أن يسير على خطى والده، ويتولي المهمة المقدسة المتمثلة في أن يمنح الحياة لاسم والده بعد انتقال الأب للعالم الآخر.

أما الفتيات فيتلقين تدريبهن في البيت، بينما يساعدن في أعمال المنزل وعند الحاجة يسهمن أيضاً في العمل بالحقل. وتتعلم الفتيات من أمهاتهن أعمال البيت من طهى وحياكة ونسيج وتنظيف. كما يتعلمن فنون العلاج والرقص والموسيقى والغناء، فضلاً عن تعلم أساليب التعامل في الحياة والتجميل، وتربية الماشية إلى جانب كيفية أن تصبح الفتاة زوجه وأما مثالية.

وعند وفاة الأبوين، يرث الأبن الأرض بينما ترث الابنة المجوهرات والأثاث وأدوات المنزل، وإذا لم يكن هناك أبناء في الأسرة تصبح الابنة مالكة كل شئ[١].

وكانت أسر الطبقة العليا وحدها هي القادرة على إرسال أبنائها للمدرسة. ويتلقى أبناء الفرعون تعليمهم وتدريباتهم في فصول دراسية بالقصر الملكي، أما الأولاد الآخرون من أبناء الطبقة العليا، فلهم من الحظ ما يتيح إرسالهم إلى مدارس المعابد، منذ سن الثامنة تقريباً وكان الصبية، سواء من يتلقون التعليم في القصر أو على أيدي كهنة مدارس المعبد، يتعلمون الفضائل مثل آداب السلوك والأمانة والقراءة والكتابة والحساب والتاريخ والجغرافيا والدين[٢].

وكرس بتاح حتب نفسه لتعليم الأطفال لاعتقاده أنه وريث الحكمة على الأرض، وكان يؤمن بأن العقاب البدني يحث على الفضيلة فيجب الالتزام بقانون السماء والأرض الذي يخبرنا أن نتعلم عن طريق التألم والمعاناة يقول (إن كل طفل في بدء تطوره ليس إلا حيواناً تقريباً،والنتيجة المترتبة على ذلك أنه إذا أهملت العصا فسد الطفل، فيجب أن يتعلم الصغير كيف يطيع بالسوط تماماً كالحصان الجموح، لكن بالإضافة إلى العقاب فالطفل في حاجة إلى النصح،

---

(١) أناويز، مرجع سابق، ص٣٩.

مزيد من التفاصيل انظر روز إليندم وجاك .ح يانسن، الطفل المصري القديم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

(٢) أناويز، مرجع سابق، ص٣٩.

فعليه أن يتعلم النظرة الفلسفية إلى الحياة، فالنظرة الفلسفية هي أحسن ميراث أستطيع أن أتركه لابني[١].

- الملكـــات: شغلت المرأة في مصر القديمة بصفة عامة مكانة لم تصل إليها المرأة في أى مجتمع معاصر لها وإن اختلفت هذه المكانة من عصر إلى آخر.

وقد استخدم المصرى القديم ألقاب مثل (زوجة الملك) (سيدة كل السيدات) (سيدة السيدات) (سيدة زوجات الملك) (الأخت الملكية والزوجة الملكة) (الزوجة الملكية الأولي).

وفى عصر العمارنة كان يطلق على الملكة أيضاً (كبيرة حريم الملك) (كبيرة حريم الآلة) وألقاب أخرى في نهاية الدولة الوسطى (الأميرة الوراثية) (عظيمة المديح) (عظيمة الحسن) (أميرة كل النساء) (أميرة البلاد كلها). [٢]

- حتشبســوت: ١٤٩٠-١٤٦٨ق. م.، استطاعت أن تحكم مصر طيلة عشرون عاماً وفقاً للأسطورة، أعلن (آمون – رع) أمام مجمع الآلهة أن مصر يجب أن تحكمها ملكة عظيمة وتقدم (تحوت) وحدد المرأة التي ستنجب هذه الملكة بأنها زوجة (تحتمس الأول) السيدة الجميلة التى تدعى (أحمس) والتي يعنى أسمها (المولودة للقمر) واستدعى (أمون – رع) (خنمو) ليصنع على دولاب فخاره جسد والتي ستولد من الملكة (أحمس) والتي ستصبح ملكة عظيمة على مصر.

---

(١) جورج بونز وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

(٢) محمد على سعدالله، الدور السياسى للمكلات في مصر القديمة، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٨، ص ٤.

مزيد من التفاصيل انظر:

Abraham, J. H. Orgins and growth Sociology, pengivm Books, London, 1973.

وفى عام ١٥٠٤ ق. م.، أصبحت الملكة حتشبسوت في سن الثالثة والثلاثين أول امرأة ترتدى التاج المزدوج أو (بشنت) تاج الأرضيين. ويعنى أسمها (في مقدمه النساء النبيلات).

وكثيراً ما صورت حتشبسوت نفسها في هيئة رجل، بل ذهبت أبعد من ذلك إلى حد ارتداء الثوب الفرعونى التقليدى للرجال فضلاً عن اللحية المزيفة[١].

وكانت حتشبسوت امرأة قوية الإرادة لم تترك أحداً يتدخل في خططها أو يعوق طموحاتها. وشهدت مصر ازدهاراً تحت قيادتها، ونالت احترام شعبها الشديد وإعجابه، وانتعش الاقتصاد ولم تقع أى حرب خلال عهدها. وأثبتت سيادتها بإعداد وتمويل مشروعات عامة ضخمة لترميم المعابد والآثار التي ضربها أو دمرها الهكسوس ودشنت أيضاً عدة مشروعات للبناء. وفي ١٤٩٣ ق. م، وخلال العام السادس أو السابع من حكمها، امرت بإعداد أسطول من خمس سفن وشاركت في بعثة تجارية إلى بلادبونت وجلبت البعثة معها شحنات ضخمة من العطور والذهب والابنوس والعاج[٢].

- نفرتيتى: اسم نفرتيتى يعنى حرفياً الجميلة قادمة، وقد لقبت نفرتيتى بعده ألقاب (الزوجة الملكية العظمى) (سيدة مصر العليا والسفلى) (سيدة الأرضيين) (الأميرة الوراثية).

وتعد الملكة نفرتيتى من أهم الشخصيات في عصر العمارنة واقترن اسمها عالياً باسم زوجها اخناتون على النقوش. ومثلت بوجهها معه في أغلب المناظر سواء الأسرية أو الرسمية.

وكان لنفرتيتى دورها في الحياة العامة والسياسية وهناك الكثير من الأمثلة التى تدل على ذلك حيث تظهر الملكة تقوم بأعمال كانت مخصصة فيه للملك مثل ضرب الأعداء وقيادة العربة الملكية شأنها شأن الملك وتوزيع الذهب على كبار الموظفين.

---

(١) أناروبز، مرجع سابق، ص٢١٩.

(٢) أناروبز، ص ٢١٩.

♦ أحمس – نفرتيرى: الملكة أحمس نفرتيرى ابنه (سقنرع تاو الثانى) والملكة (أحوتب) من الأسرة السابعة عشرة. وعندما مات (سقنزع تاو الثانى) ميتة عنيفة في قتال الهكسوس، نسب إلى (أحوتب) تشجعيها للقوات المصرية على مواصلة القتال. وعاصرت الملكة أحمس نفرتيري الكفاح ضد الهكسوس مثل الملكة (حوتب) وكان لشخصيتها النشطة دور هام في عملية إعادة البناء الكبير في تلك الفترة التى أعقبت النصر على الهكسوس[١].

♦ كليو باترا السابعة الأسرة البطلمية **٦٩-٣٠ ق.م.:**

كليو باترا السابعة المقدونية، المولودة في الإسكندرية، آخر فراعنة مصر. وكانت كليو باترا السابعة التى يعنى أسمها (مجد والدها) امرأة ذكية، ذات شخصية كارزمية كرست نفسها لمصر، ورثت كليو باترا السابعة الحكم في سن الثامنة عشرة بعد وفاة والدها بطليموس الثانى عشر ولما كانت التقاليد أن تتولى الحكم بمفردها، عين شقيقها بطليموس الثالث عشر ذو الاثنى عشر عاماً شريكاً لها فى الحكم، لكن طموحات كليوباترا السياسية دفعها إلى الإزاحة بشقيقها.

وبعد موت قيصر أخذت تباشر حكم البلاد. ونظمت الضرائب واهتمت بالزراعة والرى وقوت جسور القنوات المهملة وحققت قدر من الرخاء والطمائنينة واكتسبت محبة الناس وولائهم لها.

وكانت امرأة ممتازة لصفاتها الشخصية وقوه أعمالها. ولم ينجز أحد من الملوك من أسلافها مثل تلك الأعمال العظيمة التى أنجزتها، فقد زادت من تجميل الإسكندرية وشجعت العلماء والمشتغلين بالعلوم الكيميائية والرياضيات والفلاسفة، ورعت فنون التصوير والنسيج، كما شجعت أيضاً الصناعات المحلية[٢].

---

(١) محمد على سعد الله، الدور السياسى للملكات، ص ١٢٢، ١٢٣، ٥٩.

(٢) أناروبز، مرجع سابق، ص٢١٩.

♦ المرأة فى حكم وأمثال الفراعنة:

- الزوجة الصالحة هبه من الإله لمن يستحقها.

- يا ولدى إذا كنت عاقلاً فأسس لنفسك بيتاً وأحب زوجتك من قلبك، أملأ بطنها واكس ظهرها واشرح صدرها. إياك أن تقسو عليها فإن القسوة خراب للبيت الذى أسسته فهو بيت حياتك. لقد اخترتها أمام الله فأنت مسئول عنها أمام الإله).

- إذا أردت رضا الله فأحب شريكه حياتك اعتن بها تعتن ببيتك وترعاه. قربها من قلبك فقد جعلها الإله توأماً لروحك.

- إذا أسعدتها أسعدت بيتك وإذا أسعدت بيتك أسعدت نفسك زودها بكسوتها ووسائل زينتها وزهورها المفضلة وعطرها الخاص فكل ذلك سينعكس على بيتك ويعطر حياتك ويضفى عليها الضوء أسعدها مادمت حياً فهي هبه الإله الذي استجاب لدعائك بها عليك فتقديس النعمة إرضاء للألهة. ومنعاً لزوالها. (الحكيم سنب حوتب لابنه).

- ولتكن شريكة حياتك التي تختارها امرأة قنوعة ومتواضعة في أحلامها ومطالبها وسعة تفكيرها. كبيرة القلب. امرأة يجعل منكما الرباط المقدس روحاً واحدة وقلباً واحداً وأمالاً واحدة تربطها الثقة المتبادلة.

- علموا المرأة يتعلم الرجل.. ويتعلم الشعب (كاجمنى).

- إذا أحببت فتاه وبادلتها حب بحب فإياك أن تخونها. إن الحفاظ على الرباط العائلى المقدس حياة للمجتمع. إذا اقترفت هذا الجرم خنت المروءة وأغضبت الإله وجلبت على نفسك العار والضرر والاحتقار. (بتاح حوتب)[1].

مزيد من التفاصيل انظر ونفرد هولمز،كانت ملكة على مصر، ترجمة سعد أحمد حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص١٧١، ١٧٢.

(١) سيد كريم، الحكم والأمثال في الأدب الفرعوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢، ص١٦٠

- يا بنى.. الزواج هو رحلة العمر في بحر الحياة إن تلك الرحلة تحتاج إلى زاد حتى تنتقل بأمان إلى شاطئ نهر الحياة. تحتاج إلى زاد من الثقة والصبر والتسامح تحتاج إلى زاد من قوة السواعد المشتركة التي تمسك المجدافين حتى يضربا صفحة الماء معاً فتحتفظ السفينة بتوازنها وتحنى لها العاصفة رأسها فتشرق الشمس بعدها فيساعد النسيم على أمان سير السفينة وهو يداعب شراعها ليكن ساعدك قوياً فلا تيأ س ولا تترك المجداف حتى لا تسير السفينة على غير هدى إنها رحلة العمر فليباركها الإله يا ولدى. (برديات العمارنة)

- الأم هبه الإله. ضاعف لها العطاء فقد أعطتك كل حنانها، ضاعف لها الغذاء فقد غذتك من عصارة جسدها. أحملها فى شيخوختها فقد حملتك في طفولتك أذكرها دائماً فى صلاتك وفى دعائك للإله الأعظم فكلما تذكرتها تذكرتك وبذلك ترضى الإله. فرضاؤه يأتي من رضائها عنك.

- الأم هبه الإله للأرض. فقد أودع فيها الإله سر الوجود فوجودها استمرار لوجود البشر.

- لا تنس أمك وما عملته من أجلك ضاعف لها غذاءها. أحملها كما حملتك فإذا نسيتها نسيك الإله. لقد حملتك تسعة أشهر وحينما ولدت حملتك ثانية حول رقبتها وأعطتك ثديها سنوات لم تشمئز من قذارتك ولما دخلت المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف بجوار معلمك ومعها الخبز والحبة جاءت بها من البيت. (بردية الحكيم آني)

- إذا مات الأب هتفت الملائكة مات من كان يكرمك الناس من أجله. وإذا ماتت الأم هتفت الملائكة ماتت من كان الآلة يكرمك من أجلها[1]. (بردية الحكيم آني)

النظام الأخلاقي:

إن المطالع لكتاب (أدب الحكمة) عند الفراعنة يعثر على كثير من المفاهيم الأخلاقية المرتبطة بعقيدة البعث أو بيوم الحساب

---

(١) سيد كريم، الحكم والأمثال في الأدب الفرعونى، مرجع سابق، ص١٦٠

بعد الموت. فالسلوك المستقيم هو إقرار للنظام الأخلاقي الذي وضعته الآلهة (ماعت) Maat في بداية الخلق وهي ربة الحقيقة والعدالة والوفاق. وهناك نصوص تمتدح فضائل كالتواضع وضبط النفس والحكمة والصبر.

وقد عرف المصريون الضمير منذ أقدم العصور ووصفوه (إن قلب الإنسان هو إلهه الخاص، وإن قلبي قد رضي عن كل ما عملته وكل من رضي قلبه عما عمله التحق بمرتبة الآلهة).

ويلاحظ أن معرفة المصريين ما للقلب أو الضمير من دور بارز وحاكم في عملية تبرئة الميت أمام الإله الأكبر أو عدم تبرئته كان له شأن عظيم في إذاعة الاعتقاد بالمسئولية الخلقية وأوجدت شيوعاً عاماً عن القيمة البالغة للفضائل الخلقية التي تتمثل في الاستقامة والحق والعدل والتي بفضلها يصبح الفرد مقرباً لدى الإله أوزيريس أو رع.

وكان المصريون القدماء يرون أن القتل والسرقة وأكل مال القاصر واليتيم والكذب والخداع والزنا وهتك العرض وشهادة الزور وانتهاك حرمات الموتى ونبش القبور من كبائر الإثم.

وتمثلت الأخلاق المصرية في البداية بالمحافظة على العادات والأواصر الأسرية والبر بالوالدين واحترامهما. وكان البر بالوالدين من أهم الفضائل الخلقية التي يحرص عليها المصري القديم، لذا فإن مواعظ (آني) لابنه خنس حوتب تركز على الرابطة الأسرية وتكريم الأب والأم وتذكر بفضل الأم عليه.

ومن تعاليم المفكر آني إلى ابنه خنس حوتب يوصيه بمساعدة المسنين والفقراء والمحتاجين لأن النعمة لا تدوم ولأن الموت هو نهاية المطاف، وصاحب القلب القاسي لن ينال عطف الإله في الآخرة[1].

وكان بتاح يحث على تعلم وتعليم الفضيلة (فضيلة ضبط

---

(١) حربي عباس عطيتو، الفكر الشرقي القديم، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٥، ص٦٠.

مزيد من التفاصيل انظر أحمد فخري، مصر الفرعونية، الأنجلو المصرية، ١٩٦٠.

النفس)، ويقول: إذا كنت ذا سلطان فاسع لأن تنال الشرف عن طريق العلم ورقة الطباع، احذر أن تقاطع الناس وأن تجيب على الأقوال بحرارة، ابعد ذلك عنك وسيطر على نفسك). ويقول أيضاً: (ولتكن أعمالك في مناسباتها وكلماتك في موضوعها، اكبح جماح نفسك والجم لسانك).

وهناك مختارات من الأدب الفرعوني القديم عن فكرة الحساب في الآخرة (عقيدة الثواب والعقاب كما جاء في كتاب الموتى في دخول قاعة الصدق (الحق) ودفاع عن النفس يوم الحساب.

-إني لم أرتكب ضد الناس أي خطيئة.	-إني لم أسرق
-إني لم أرتكب القتل	-إني لم أسبب تعساً لأي إنسان.
-إني لم أرتكب الزنا	-إني لم أترك أحداً يتضور جوعاً.
-إني لم أفعل ما يمقته الإله	-لم أغتصب طعاماً
-إني لم أنطق كذباً	-إني لم أنقص مكيال الحبوب.
-لم أكن طماعاً	-إني لم أسب
-لم يكن صوتي عالياً فوق ما يجب	-لم أكن متكبراً.
- فمي لم يثرثر	-لم أعب في الذات الملكية [1]

النظام الديني:

لقد كان أثر المفكرين القدامى من الكهنة المصريين في مجال النظم الدينية والأدبية كبيراً ففي مجال علم الاجتماع الديني يظهر إسهام الحضارة والفكر الاجتماعي المصري، حيث ترجع فكرة وحدة الله، فالثورة التي قام بها إخناتون الكاهن المصري،

---

(١) حري عباس عطيتو، مرجع سابق، ص٢٥٦.

الذي أصبح فيما بعد امنحتب الرابع كانت تستهدف إحلال فكرة الوحدانية، مكان فكرة الآلهة المتعددة. وأصبح الآن معظم المشتغلين بالدراسات المصرية القديمة يذهبون إلى أن الديانة الموسوية إذ نادت بالوحدة، إنما كانت متأثرة في ذلك بهذه الثورة ومما كان سائداً في مصر منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد من حركة تدعو إلى تمجيد إله أعظم يعتبر إله الآلهة ورب الأرباب ومعظمهم لا يتردد في القول بأن موسى عندما خرج من مصر إنما كان حاملاً معه هذا التراث المقدس وما نادت به الثورة الدينية المقدسة من وحدة الله التي حدثت قبل ظهوره بقليل، والتي كان العقل المصري مشبعاً بها وبمقدساتها في ذلك الوقت، حتى إن هؤلاء المؤلفين ليعقدوا موازنات بين بعض الأناشيد الدينية المصرية وبعض الأناشيد والفصول التي أتت في العهد القديم ومزامير داود وهي موازنات تبين أن ثمة نصوصاً بأكملها من الكتب السماوية اليهودية تكاد تكون قد نقلت في معناها وفي مبناها من الأناشيد والأفكار المصرية [1].

ومن هذه الأناشيد مثلاً التي قيلت في مدح الإله-الشمس أو آمون رع، ثم أنشودة اخناتون في مدح الإله-الشمس والأنشودة ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ولا زالت موجودة للآن على ورق البردي في متحف القاهرة، ففي أنشودة رع نجد أن المصريين يخاطبونه بأنه (أعظم شخص في السموات وأقدم شخص على الأرض وسيد كل المخلوقات) وأنه (وحيد بين الآلهة) وهو أيضاً (سيد الحقيقة) (ووالد الأرباب وهو الذي شكل الآدميين وخلق الحيوانات) وهو إلى جانب ذلك خالق كل شيء (قاهر السموات) (فاضل).

وهذه النصوص وغيرها قد عرفت عند الإسرائيليين منذ زمن طويل قبل ظهور المزامير نجد أن نفس الأوصاف التي يطلقها المصريون على الإله آمون رع هي نفسها التي أطلقها الإسرائيليون على الإله يا هوه أو الرب: من في السموات يمكن أن

---

(١) حسن شحاته سعفان، تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية، دار النهضة العربية، ١٩٦٥، ص١٨، ١٩.

يقارن بالرب؟ من ذا الذي يشبه الرب بين أبناء الآلهة؟ (المزمار ٩٩-٦) ولا شبيه لك بين الآلهة أيها السيد (٨٦-٨) وفي المزمار (٣١-٥) قيل: (أيها الرب أنت إله الحقيقة).

ولعل الفكر الديني المصري يمثل التطور المعروف في الاجتماع الديني من الاتجاه عن عبادة الماديات إلى عبادة الروحانيات ثم من التعدد للوحدة، فالمصريون القدامى قد بدأوا بعبادة مظاهر الطبيعة المادية لذاتها مثل النيل والشمس وبعض الحيوانات ثم انتقلوا من ذلك إلى تقديس هذه الآلهة بوصفها رمزاً لآلهة روحية وأخيراً أحلوا الوحدة محل التعدد على أثر ثورة إخناتون وما سبقها من مقدمات[١].

وكان اختراع الكتابة جزءاً هاماً من التقدم الذي تم مع بداية العصر التاريخي (٣٠٠٠ ق.م) وتمثل ألواح (مينا أو نارمر) مرحلة أولية في الكتابة الهيروغليفية. فقد نظر المصريون إلى الإله تحوت Thoth كاتب الآلهة على أنه مخترع الكتابة، لكنهم ربطوا بين وظيفته ووظيفة زميلته الإله سيشات Seshat الكاتبة وسيده دور الكتب أي المكتبات، وكان يعهد إليها بأرشيف الحوليات الملكية. ولاشك أن الكتابة كانت دائماً هامة في الطقوس الدينية.

والكهنة كانوا يقرأوا التعاويذ من نصوص مكتوبة على أوراق البردي، كما احتفظت النقوش المنحوتة على الحجر بأسماء الأشخاص الذين دفنوا في المقبرة ثم أضيفت بعض التعاويذ التي تضمن استمرار تقديم القرابين، مثلما تضمن الهناء أو السعادة الأبدية للمتوفى.

كما كانت تكتب هذه النصوص والمتون على مجموعة من أوراق البردي ثم تودع القبر مع المتوفى، وقد أطلق عليها (متون التوابيت).

---

(١) حسن شحاتة سعفان، مرجع سابق، ص١٨، ١٩.

مزيد من التفاصيل انظر سليم حسن، مصر القديمة، السيادة العالمية والتوحيد، ج٥، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١.

أساطير الخلق: إن الصدارة في أي مجمع للآلهة تكون هي المسئولة عن الخلق، وكانت أسطورة (هليوبوليس) أوسعها انتشاراً، وتقول هذه الأسطورة إن الإله الخالق هو أتوم Atum الذي اتحد في هوية واحدة مع إله الشمس رع.

وتقول الأسطورة أن (أتوم) خرج من عماء المياه الذي يسمى Nun ثم ظهر فوق تل وأنجب بغير زواج الإله شو Shu الهواء. والإله (تف نون) أو تفنت Tefenet (الرطوبة) وكان إله الهواء (شو) هو الذي زج بنفسه بين آلهة السماء نوت Nut وزوجها إله الأرض جب Geb، وبذلك فصل السماء عن الأرض وهكذا كانت بداية خلق الكون من انبثاق الأرض من الماء عظة لأن المصريين كانوا يستهلون أفكارهم من جزر الطين التي تظهر في النيل. وعندما تأمل المصريون خصوبة أرضهم أدركوا أن النيل والشمس مسئولان عن هذه الخصوبة، وارتبط فيضان النيل باسم الإله (حابي) [١].

أما بالنسبة للشمس، فالإله (رع) إله هليوبوليس هو الذي يمثل أساساً قوتها في مجمع الآلهة. وقد استخدم المصريون لفظ (رع) كاسم عام يعني (الشمس) ثم توحد (رع) مع آتون في صيغة واحدة هي (رع-آتون) وقد أصبح فرعون يسمى (ابن الإله رع)، كما ارتبطت فكرة العدالة ونظام العالم باسم (رع) ونظر المصريون إلى الآلهة ماعت Maat ربة العدالة والحقيقة على أنها ابنته[٢].

الطقوس الجنائزية:

دأب المصريون على الاهتمام الشديد بالاحتفال بدفن

---

(١) ديمتري ميكس وكرلسقين فاقاريكس، الحياة اليومية للآلهة الفرعونية، ترجمة فاطمة عبد الله محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠.

(٢) بارندر، ص٤٦، ٤٩.

مزيد من التفاصيل انظر جيمس هنري برستد، تطور الفكر والدين في مصر الفرعونية، ترجمة زكي موسى، دار الكرنك، القاهرة، ١٩٦١.

الموتى، إذ اعتقدوا أن سعادة الشخص الميت في المستقبل تتوقف على هذا الاحتفال، وعلى المعتقدات المرتبطة بالطقوس، كان الميت يدفن دائماً ولا تحرق جثته. وتشمل هذه الطقوس على ممارسات التطهر والقربان.

واعتقد المصريون أن من المهم الاحتفاظ بالجسد نفسه وقد ساعدهم على ذلك جفاف التربة في الأماكن الصحراوية لدفن الموتى، وقد كان الأسلوب المتقن في عملية التحنيط يستلزم إزالة المخ والأمعاء، كما يستلزم أحياناً في حالة الذكور إزالة الأعضاء الجنسية ثم يوضع على الجسم من الخارج النطرون (أو الصوديوم الطبيعي) ثم يحشى مزيج من النطرون والتوابل والزيت في التجاويف التي أحدثها تفريغ الأمعاء، وتملأ الفراغات بعد ذلك بحشو من الكتان وتوضع التوابل الحارة والزيوت على الجسم من الخارج أيضاً ثم يلف بأربطة من الكتان قبل وضعه في التابوت ويحتفظ كذلك بالأعضاء التي أزيلت من الجثة، فيحتفظ بالأحشاء في أربعة قدور صغيرة قيل أن أربعة من أبناء حورس يقومون على حمايتها. ويبدو أن عملية تحنيط الجسد كله، ومن الناحية العقائدية هي محاكاة مضنية لما حدث في الأسطورة لأوزوريس على يد أنوبيس في أبيدوس مما يعني أن الشخص المتوفى قد اتحد مع أوزوريس [1].

تقديس الحيوانات:

لاشك أن تقديس الحيوانات أو عبادتها يعد جزءاً رئيسياً من الديانة الفرعونية، وكانت علة التقديس إما الخوف أو الرهبة من ضرر هذا الحيوان وشره كالأسد والتمساح مثلاً، وإما الرغبة في نفعه وخيره أمثلة ذلك العجول والكباش والقط والأوز والدجاجة

---

(١) بارندر، مرجع سابق، ص٥٥.

وغيرها.

وتجدرالإشارة هنا إلى أن عبادة العجل أبيس Apis في منف من أقدم عبادات الحيوان في مصر إذ ترجع إلى الأسرة الأولى. ولقد بدأت مستقلة قائمة بذاتها أول الأمر ثم سرعان ما ارتبط عقائدها بعد ذلك بكبار الآلهة مثل (رع) و(أوزيريس) (والإله بتاح) ملك منف.

وفي العصر البطلمي انتشرت عبادة أوزيريس-أبيس عن وعي لإقامة عبادة جديدة هي عبادة سيرابيس Sarapis.

هذا ولقد تطورت قداسة الحيوانات فأصبح المصريون يقدسون الحيوانات لأنها حلت فيها أرواح الآلهة التي لابد لها من التجسد Incarnation إذ أرادات النزول إلى الأرض، فالنسر مثلاً لم يعد هو (حورس) نفسه، وإنما هو مأوى أسرار حورس[1].

البناء الطبقي:

يمكن القول بصفة عامة أن الحياة الاجتماعية في مصر الفرعونية كان مصطبغاً بالصبغة الدينية ، فقد عثر كثير من العلماء على ما يفيد أن نظام الملكية كان يرتكز على حقوق الآلهة، بمعنى أنه لم يكن يفصل بين ملكية الدولة العامة لمرافق الإنتاج وبين الملكية المقدسة باعتبارها وحدة قائمة بذاتها من الأموال لا يجوز ملكيتها ملكية فردية. فهناك مراسيم تشير إلى ممتلكات المعابد ومن أمثلتها المراسيم الصادرة من الملك (بي الثاني) بشأن تحديد ممتلكات معبد (مين) من حقول وقد جاء بمرسوم (نفركارع) من وصف الحقل بأنه (حقل الآلهة الذي يقوم على خدمة الكهنة. ومعنى

---

(١) حربي عباس عطيتو، الفكر الشرقي القديم، مرجع سابق، ص٣٢.

ذلك أن الكهنة لم يكونوا ملاكاً لتلك الملكيات وإنما كان لهم واجب مباشرة استغلالها لصالح الهيئة الدينية القائمة على الشعائر التي تمارس في معابد الآلهة.

ويمكن أن نحدد أهم ملامح البناء الطبقي في مصر الفرعونية فيما يلي:

أولاً: الطبقة المؤلهة: التي ظهرت نتيجة تأليه فرعون ودعم سيادته ونشر سلطانه وجمعه بين السلطة الدينية والسلطة السياسية وممارسته لكافة الحقوق الاجتماعية التي كان بمقتضاها يمنح الأمراء والكهنة الملكيات والامتيازات المادية والمعنوية.

ثانياً: طبقة الأشراف: وتتألف من الأمراء والأعيان والكهنة والسدنة وفي الغالب كانت هذه الطبقة تقطع الضياع والملكيات في مقابل تعهدها بأداء خدمات من طبيعة دينية للطبقة المؤلهة وخاصة تقديم القرابين بعد الوفاة، وكانت المزايا المادية والاجتماعية التي يتمتع بها أفراد هذه الطبقة تنتقل وراثياً لهم ولأتباعهم الذين يلتزمون حيال الطبقة المؤلهة، وقد أدى ذلك إلى جعل البناء الاجتماعي متألفاً من حلقات متسلسلة من المستويات الاجتماعية يخضع بمقتضاها أفراد المستوى الأدنى إلى أفراد المستوى الأعلى حتى في قمة الهرم الطبقي.

ثالثاً: طبقة أنصاف الأحرار: كانت تشمل كل من يدخل في عداد طبقة الأشراف من المواطنين، وخاصة من المستخدمين وأصحاب الحرف من المهنيين، والفلاحين والعمال الزراعيين والجنود والعسكريين، وأفراد هذه الطبقة، وإن لم يكونوا أرقاء تابعين، إلا أنهم لم يكونوا يتمتعون بحريتهم كاملة، حتى إن الكثير من العلماء يذهب إلى القول بأنه أتباع الأرض Cerf كانوا في وقت يؤلفون طبقة اجتماعية في مصر القديمة، مستدلين على ذلك من وثائق تشير إلى انتقال ملكية (الأنفار) إلى الورثة. الأمر الذي يوحي بوجود طبقة أتباع الأرض، وكان بعضهم من الأجانب الذين

كانت تأسرهم الجيوش المصرية في غزواتها وفتوحاتها. [1]

والمجتمع المصري لم يكن مبنيا على الرق، فقدماء المصريين لم يروا (ماعت) النظام المستقر فحسب، بل (والخبز والبيرة) أيضاً كحق لكل فرد (عظيماً وصغيراً) ورجالاً ونساءً على حد سواء، كما لم يكن عصراً ذهبياً، كما يقول البعض فمن بهرتهم الحياة الممتعة المصورة في المقابر، كما لو أنهم لم يشعروا قط بالظلم القاسي هناك. وإنه لمن الجلي وجود الطبقات النزاعات الاجتماعية في العصور الفرعونية.

كان الفرعون تجسيداً للسرمدية الإلهية وقائما بالشعائر التي تكفل استمرارها. وهو القوة الكلية للدولة، ولكنه لم يستطع، هو نفسه أن يكون البيروقراطية ولا الكهنة. وعلى ذلك تألفت هيئة حاكمة من حكام الأقاليم ورؤساء إدارة الجيش ومن الكهنة. ولما كان هؤلاء الرجال نشيطين وماهرين ومخلصين في تأدية واجباتهم كوفئوا بمرتبات سخية، وبضياع وهدايا ملكية. وفي عصور لاحقة منحوا (أسهماً) من دخل المعابد والمقابر (بأمر من الملك)، ومحاكاة لهذه الرتب السامية كان كل شخص مدرباً مهما كانت رتبته، سواء كان موظفاً أو كاتباً أو من الكهنة أو من العمال الماهرين أو الفنانين. كانت أجور هذه الطبقة المتوسطة، نوعية، ومكافأتهم هبات، وهم دعامة الطبقة العليا وكانوا يحظون بقدر نسبي من يسر المعيشة ولين الحياة.

ويبدو أن الفلاحين المصريين كانوا أقل حظاً من هؤلاء بكثير فكانوا عمالاً في الأراضي يشتغلون جماعات أو عبيداً أو أسرى حرب، وكانوا في جميع الأوقات عرضة للخدمة بالسخرة[2]

---

(١) أحمد الخشاب، علم الاجتماع الديني، مكتبة القاهرة الحديثة، ط٣، ١٩٧٠، ص٣٢٨.

(٢) جورج بوزر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة، مرجع سابق، ص٢٣٠،٢٩٩.

الحكم والإدارة في مصر الفرعونية:

أصبحت مصر أول أمة أو دولة، موحدة في العالم، مع ضم إقليمي الوجه القبلي والبحري كقطر واحد تحت حكم الفرعون حوالي ٣١٠٠ ق. م في أوائل عصر الأسرات. واحتاج هذا الكيان القومي الكبير لعمل منسق ومنظم على نطاق واسع مع نظم إدارية جديدة وحكومة لإدارتها.

وكان الفرعون أكثر الأشخاص نفوذاً في مصر، حيث يعتقد أنه نصف بشر ونصف إله أي أنه تجسيد للمعبود. وكملك وحاكم، اعتبر الفرعون حائزاً لأسرار السماء والأرض. ومنحت هذه القوة الكلية المقصورة سلطات كاملة للفرعون، ووضعت على عاتقه مسئوليات عديدة تجاه شعبه وتجاه الآلهة. فكانت أهم واجباته خدمة الآلهة من خلال الحفاظ على السلام والانسجام في ظل قوانين (ماعت) فسيطر الفرعون على الحكومة والجيش والاقتصاد بأكمله. ووضع القوانين المنظمة، وأدار البعثات التجارية والتعدينية، وأشرف على أعمال الري، وتولى إدارة السلطة القضائية، فكان الكاهن الأكبر، والقائد الأعلى للجيش، والمسئول عن تطبيق القانون.

ولما كانت هذه الالتزامات، أكثر من أن يستطيع شخص واحد القيام بها مباشرة، فقد كلف الفرعون مسئولين وكهنة لتنفيذ المهمات الحكومية، والقيام بالوظائف الدينية.

واعتبر الوزير الذي يعينه الملك من بين الأسر الملكية. أعلى المسئولين مكانة، ولم يكن الوزير يساءل إلا بواسطة الفرعون، الذي يتولى تنفيذ أوامره وقراراته ومن ثم فهو على اتصال يومي مع الفرعون، وأيضاً مع كبار الكهنة، وقادة الجيش. ويهتم بتطبيق القوانين والإشراف على أمور العدل والزراعة والري والضرائب، وبالتالي يمكن للمرء أن يتخيل أن يحصل الوزير في المقابل على ثروة وامتيازات ضخمة.

وكانت مصر دولة ثيوقراطية، حيث سيطر رجال الدين عليها جزئياً. وعمل العديد من الكهنة كمستشارين ووزراء

للفرعون، وقد استثنى الفرعون الكهنة من دفع الضرائب [١].

الفكر السياسي والقانوني

قدم المصري القديم نظريات سياسية مثل نظرية تقديس الملوك وكيف أن الملك ابن الله أو يمثله على الأرض أو من نسل الألهة، وهي النظرية التي انتقلت فيما بعد إلى الفكر اليوناني والروماني ثم أخذتها الأديان المختلفة لتشكيلها تشكلاً جديداً يتفق مع مبادئها العامة في التوحيد، ويرجع المؤرخون أن هذا التأثير قد انتقل من الثقافة الغربية عن طريق الإسكندر الذي زار معبد آمون بعد استيلائه على مصر واستقبله الكهنة فيه وقاموا له بطقوس دينية، إذ انتقلت الفكرة بعد ذلك إلى سكان رودس الذين عندما أرادوا تأليه بطليموس الأول استشاروا كهنة آمون وأخيراً انتشرت في الدولة الرومانية وأدت إلى وجود نظرية حق الملوك المقدس. ومن هذه النظرية نشأت نظرية أخرى انتشرت كسابقتها وهي أن الملك أو الحاكم هو المالك للأرض وأن الأفراد ليس لهم إلا حق استغلالها نظير فوائد معينة تعود عليهم.

وبالنسبة للنظام القانوني فقد مثلت (ماعت) القانون الأساسي لجميع الطبقات الاجتماعية، ولم يكن هناك من هو فوق القانون على الإطلاق،وكان المواطنون في مصر القديمة طائعين للقانون، حيث خشوا العقاب في الحياة الدنيا والآخرة، وكانت الدعاوى القضائية تنظر في المحاكم المحلية باستثناء الجرائم التي تنطوي على عقوبة الإعدام، التي ينظرها الفرعون باعتباره القاضي الأعلى.

وفي الدول الحديثة (١٥٧٣- ٧١٢ ق. م) عرف المصريون نظام المحاكم الخاصة بمناسبة المؤامرات التي دبرت ضد رمسيس الثالث وكان المصريون أول من عرفوا المعاهدات الدولية، ومن هذه المعاهدات ما عقده رمسيس الثاني مع ملك الحيثيين[٢].

(١) أناروبز، ص١٠٢ .

(٢) حسن شحاته سعفان، ص٢٠،٢١.

وامتاز المصريون القدامى كذلك في الناحية التشريعية فقد كان المنطوق الإلهي (تعاليم الملك) هي التشريع الأمثل، وكان هذا المنطوق يصدر في صور مراسيم واجبة الطاعة والنفاذ، ويضرب المؤرخون مثلاً بمرسوم حور محب الذي أصدره لإعادة الأمن إلى البلاد، وإعادة تنظيم الجهاز الإداري والقضاء على الرشوة والفساد، واستغلال النفوذ (إن الرجل الفقير هو الهدف المقصود الحماية من الظلم، والرخاء الاجتماعي هو الغاية التي ننشدها) ونص المرسوم على العقوبات التي تنتظر كل من يعيث في الأرض فساداً.

فالمجرم أو المذنب يقطع أنفه أو يقذف به خارج الحدود، واعتبر الحنث باليمين والرشوة والسرقة وتخريب أو نهب المقابر وحيازة سلع مسروقة ومقاومة مسئولي الدولة تهماً جنائية، بينما اعتبرت سرقة المقابر أسوأها. كما اعتبرت جريمة عدم الوفاء بالدين خطيرة للغاية، وغالباً ما يحكم على مرتكبيها برد المبلغ المستحق مع نسبة فائدة مرتفعة. ومن الممكن أن تأخذ الأحكام صورة دفع التعويض الإجباري أو السجن أو العمل الإجباري أو النفي إلى النوبة أو مصادرة الممتلكات والعقوبة الأشد هي الإعدام. ويعاقب المجرمون العاديين بالضرب أو الجلد وتشويه الملامح أو البتر [1].

بلاد ما بين الرافدين

لاشك أن اختراع الزراعة وانتشارها كان على حد تعبير الزويرت هانتجتن Huntington أعمق ما استطاع أن يؤثر في الإنسان بعدما توصل إلى اكتشافه واختراعه، فالحضارة القائمة على الزراعة كنشاط إنساني تتطلب نوعاً من القدرات والمهارات التي تختلف كثيراً عن تلك التي تتصف بها نشاطات أخرى كالرعي والصيد، وخاصة أن الزراعة تحتاج إلى مزيد من العمل والجهد والمثابرة والقدرة على الترتيب والانتظار ارتباطاً بالزمان والمكان، وكذلك تتطلب الزراعة نوعاً من الثبات والنظام والتنظيم والترتيب وهذه الخصائص لا تتوافر بالنسبة للصيد والرعي. ولابد أن تكون

---

(١) أناروبز، ص١٠٤.

الجماعات الأولى المبكرة التي ظهرت لديها بوادر التفكير الاجتماعي من تلك الجماعات التي استقرت في الأرض وحصلت على درجة من المعرفة بطرق الري وتنظيمه وكيفية الاستفادة من الموارد الطبيعية المتاحة وبخاصة الموارد المائية بالإضافة إلى القوة البشرية وسائر العوامل البيئية والأيكولوجية.

وكانت بلاد ما بين الرافدين من أخصب البقاع التي شهدت الزراعة نظراً لخصوبة هذه الأراضي، فمنذ حوالي سبعة آلاف عام كان نهر دجلة ونهر الفرات يخترقان منفصلين الخليج الفارسي ويحصران فيما بينهما تلك الأراضي المنخفضة التي أقام فيها السومريون Sumerians حضارتهم.

وقد تمكن السومريون من إقامة حضارة زاهرة حوالي عام ٤٠٠٠ ق. م وكانت لهم لغة راقية ذات آداب وأسلوب خاص بها في الرسم هو الذي اشتهر عند العرب باسم الخط المسماري ونجحوا في فلاحة الأرض واستزراعها اعتماداً على مياه الأنهار وأقاموا السدود والخزانات لمواجهة الفيضانات وتنظيم عمليات ري الأراضي واستخدموا في زراعاتهم الفئوس والمناجل التي كانت تصنع من الصوان والطين المحروق حرقاً جيداً، كما استخدموا الدواب وأدوات الجر وعرفوا صناعة الفخار. وتقدمت فنون العمارة، كما عكستها لنا معابد الآلهة والرسومات والأشكال الفنية والمصنوعات الخشبية [١].

ومن خلال صراعهم المسلح تمكن سارجون الأول Sargon في عام ٢٣٥٠ من إنشاء أول إمبراطورية موحدة مكونة من دول المدن تمتد من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط، وجبال طوروس وتضم كلاً من أكاد Akkad وسومر وأخضعها إلى حكم عسكري ذي حكومة مركزية منظمة وهي الإمبراطورية التي يعتبرها الكثيرون أول إمبراطورية حقيقية عرفها التاريخ.

قوانين حمورابي:

ظهر حمورابي Hammurabi ملك بابل في النصف

---

(١) محمود أبو زيد، المختصر في تاريخ الفكر الاجتماعي، دار غريب، ١٩٩٨، ص١١.

الثاني من القرن الثامن عشر قبل الميلاد ١٧٩٢-١٧٥٠ ق. م، والذي مثل سادس الملوك في أسرة بابل الأولى، وقد تأكد سيطرة هذه الأسرة على حكم بابل، ومن ثم كانت بداية انطفاء شعلة عظمة السومريين، وقد بدأ حمورابي سلسلة من الغزوات حققت له إمبراطورية واسعة تمتد من ماري Mary التي تقع أعالي الفرات ونينوي Nieneveh إلى الخليج الفارسي، وقد قدم حمورابي مجموعة من القوانين تعتبر أقدم ما عرفته البشرية من قوانين وتبلغ موادها حوالي ٢٠٠ مادة وتضمنت كلاً من القوانين المدنية والجنائية والتجارية وذلك في تصنيف يجمع ما بين الموضوعات المتشابهة وإن لم يتحدد فصلها بشكل دقيق.

ويعتبر عصر حمورابي آخر عصور الازدهار التي شهدتها بابل، حيث نمت في عهده العديد من المشروعات الإنشائية والاستحكامات والمعابد الدينية.

واستمر حكم حمورابي ٤٣ عاماً لتبدأ إمبراطوريته تعاني من ملامح التدهور بعد موته حتى تمكن الحيثيون والكاشيون من القضاء عليها تماماً حوالي ١٥٩٥ ق.م [١].

فلسفة التشريع عند حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠):

احتلت الدولة في حياة العراقي القديم منذ الألف الثاني ق. م موقعاً متقدماً، وكذلك (القانون)، ولا نغالي إذا قلنا أن فلسفة القانون والقاعدة الحقوقية والالتزام الخلقي من المبادئ الأساسية في المجتمع العراقي منذ ذلك الحين[٢].

فقد تميز الإنسان الرافدي بوعي اجتماعي متطور وبخاصة في باب الحقوق والواجبات، حتى أنهم اعتادوا على ممارسة حقوقهم وحرياتهم في حدود (القانون) باعتباره الأداة التي تحقق العدالة.

وقد وضع حمو رابي مدونة قوانين نظمت في دقة أحكام

---

(١) محمود أبو زيد، ١١٨.

(٢) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي، دار الهداية، ١٩٩٧، ط٣ ص١٠٦.

القانون المدني في بابل ويشمل الملكية والعقود والزراعة والتجارة وأعمال الصرافة والزواج والتبني والإرث وكذلك سير المرافعات القضائية.

وقد حرم حمو رابي الانتقام بسفك الدماء وقصر تطبيق شرعه المثل بالمثل على إجراءات المحاكم المقررة، فالناس من كل الطبقات الغريب والمولود في البلاد، على السواء تنظمهم حماية القانون، ومن الطرافة بمكان بالغ أن نقرأ كيف أن أمثال هذه المسائل الحديثة كالإعفاء من الخدمة العسكرية وثبات الملكية والتعويض عن ديون الزوجة والحقوق الشرعية للنساء والأطفال، نظمها هذا الحاكم البابلي في ختام السنوات الألف الثالثة ق. م.

ونجد قوانين الأحول الشخصية في شريعة حمو رابي مثلتها المواد (١٢٧- ١٩٤) التي عالجت مسألة الأولاد ورضاعتهم، وعدم شرعية الزواج بدون عقد شرعي، بالإضافة إلى نصيب المرأة بالتجارة وتمتعها بالحرية في ممارسة هذه التجارة وحرية الفتاة الغنية في التزوج من عبد، وبروح المشرع المسؤول، تجاوز حمو رابي في المادة (١٣٣) مسألة زواج المرأة التي تفقد في حرب أو ما شابه، في الزواج بآخر، إلى الانتظار في حالة وجود ما يكفيها من الطعام، أما إذا ثبت عدم محافظتها على عفتها، مع تيسر سبل العيش لها، فتلقى في الماء (المادة ١٣٣ب) أما إذا لم يترك ذلك الرجل الطعام الكافي لها(المادة ١٣٤) فلا جناح عليها، لأن ها دخلت بيت رجل ثان (تتزوج) وبذلك قرن المشرع سلوك الفرد بظروفه المعاشية والاجتماعية، أما إذا دخلت تلك الزوجة-التي لم تكن تمتلك الطعام الكافي-بيت رجل، قبل عودة زوجها، وأنجبت منه أولاداً فتعود إلى زوجها عند عودته (تطلق) مع بقاء الأولاد مع أبيهم، وأكدت المادة (١٣٦) على عدم رجوع الزوجة التي دخلت بيت رجل ثان (تزوجها) بعد هروب زوجها من الحرب، إلى الزوج عند عودته في نهاية الحرب[١].

---

(١) جمال المرزوقي، المرجع السابق، ص٢٠٦، ٢٠٧.

ولكي لا يخدش حمو رابي كبرياء الرجل ومكانته الاجتماعية ساوى في المادة (١٧٠) بين أبناء الزوجة وأبناء (الأمة) وأبناؤها، ولا يحق لزوجته أو أولادها التحكم بهم مطلقاً (المادة١٧١) معنى ذلك أن حمو رابي أقر عدم ديمومة العبودية على الأرقاء (من النساء والأولاد) ويتحررون حال وفاة الأب، على خلاف ما لوحظ في بيئات أخرى.

ولم تميز شريعة حمو رابي في، قسمة الإرث بين الأولاد والبنات، مهما كانت درجاتهم، كما خصصت للزوجة حصة مساوية لأبنائها في الميراث، فإذا أساء الأبناء معاملتها، وأرادوا إخراجها من البيت، فعلى القضاء معاقبة الأبناء، وإبقاؤها في بيت زوجها.

كما ضمت المادة (١٨٠) حق الفتاة المتزهدة في المعبد من الإرث، عند وفاة أبيها، حيث منحتها حصة مساوية لبقية الورثة، ويعود ميراثها بعد وفاتها إلى إخوتها، أما (التبني) منظمته المواد (١٨٥- ١٩٣) حيث نصت الأولى على ما يلي إذا تبنى رجل طفلاً (سمى) باسمه ورباه، فلا يطالب بذلك الطفل المتبنى، ولهذا الابن حقوق الآخرين.

أما حقوق الأبوة فضمتها المادة (١٩٥) بنصها على ما يلي:

(إذا ضرب الابن أباه فعلى القضاء أن يقطعوا يده).

ويزيد حمو رابي على ما سبق، تأكيده على أنه ليس بالضرورة أن يدفع الرجل مهراً لزوجته إذا اكتفت بهديته لأن قيمة الإنسان فوق كل شيء، وأن الوفاء الزوجي بين الطرفين عنوان العلاقة الزوجية الطاهرة، وأيضاً لا يحق للزوج أن يطلق زوجته إلا إذا كانت عقيماً أو زانية أو غير منسجمة معه أو سيئة التدبير للمنزل، وأن للمرأة حق ترك الزوج (مفارقته) إذا كان قاسياً معها

مزيد من التفاصيل جورج بوبيه شمار، المسئولية الجنائية في الآداب الأشورية والبابلية، ترجمه سليم الصويص، بغداد، ١٩٨١، ومحمد كاظم العطار، حمو رابي العظيم، بغداد، ١٩٨٣.

(دون الطلاق) إذا كان مخلصاً لها.

وكذلك كانت نظرة المجتمع البابلي إلى المرأة منطوية على كثير من التقدير، فالمرأة عندهم تتمتع بقدر وافر من الاحترام، وبصفة خاصة بالنسبة إلى المرأة البابلية المتزوجة والتي تنتمي إلى الأسر العريقة والطبقات الأعلى، فمثل هذه المرأة كانت لها ملكيتها الخاصة التي تستطيع التصرف فيها وفق ما تراه أو حتى تهبها إلى ما ارتأت ذلك.

وعدم مساس الرجل بالملكية الخاصة للمرأة لا يعني أن المرأة لا تمارس واجبها كزوجة وأم وراعية للزوج والأطفال[1].

وطورت كل من بابل وآشور ديانة تقوم على مجموعة من العقائد والطقوس المتماسكة التي تتعلق بالمقدسات والمحرمات ورمزوا لها بإله بابل الأكبر ميردوك Maridack الذي كان يطلق عليه (بعل) واعتبر الحارس الأوحد لوحداتها القومية مع أشور. ومن هنا فقد مثل لديهم على أنه إله الخير والحب والتضحية والرجاء.

وقد انعكس هذا على نظام العبودية الذي كان سائداً في بابل والذي يرى الكثيرون أنه يختلف عما عرفته روماً بعد ذلك، فالعبيد في بابل كان ينظر إليهم على أنهم عائلة واحدة، بل وكان بمقدور العبد أن يصير حراً وأن يصبح عضواً في المجتمع له كل حقوق الأعضاء الأحرار وواجباتهم والتزاماتهم، فالعبودية لم تكن بمثابة حاجز يحول بين الإنسان وبين صعوده، كما لم تكن وصمة تخزي الإنسان طوال حياته.

ومنذ عصور ما قبل التاريخ كانت بلاد ما بين النهرين على وعي بالقوى الروحية التي تعتمد عليها وجودهم، وتشهد على ذلك بقايا المعابد والهياكل وأماكن التضحية وتقديم القرابين، والتماثيل الرمزية الصغيرة، وتماثيل الآلهة وعادات الدفن، ومع ظهور الكتابة التي وجدت أولاً في أورك Uruk على الفرات

---

(١) محمود أبو زيد، ص١٢٠.

بالقرب من مدينة أور حوالي ٣٠٠٠ ق. م ظهر مصدر جديد من الشواهد التي زودتنا بما يقرب من نصف مليون وثيقة مكتوبة على الطين، وكذلك بألواح الكتابة التي استخدمت العلامات المسمارية مما جعل من الممكن تتبع تطورهم الفكري.

لقد طور السومريون خلال الألف الثالثة قبل الميلاد تصورات حول الكون كان لها تأثير على خلفائهم من البابليين والآشوريين والحيثيين.

وكان تصورهم الرئيسي أن الكون يتسم بالنظام وأن كل ما يمكن أن يدركه الإنسان فهو إنعكاس لتجلي العقل الإلهي لنشاط خارق للطبيعة.

والعناصر الرئيسية التي يتألف منها الكون عند السومريين هي السماء أن an والأرض كي Ki وتبدو الآلهة الأخيرة أشبه بقرص الغلاف الجوي ليل Lil أو الروح وهم يعتقدون أن البحر الذي كان في البدء هو السبب الأول الذي انبثق عنه الكون المخلوق وتشكلت فيه الشمس والقمر والكواكب والنجوم وكل يتحرك في طريقه الإلهي المرسوم وما يحدث في السماء يحدث على الأرض، ثم ظهرت النباتات والحيوانات والحياة البشرية.

أما الكائنات التي تعلو على الإنسان والموجودات غير المنظورة التي تتحكم في الكون الكبير وتتجسد فيه فكانت بالضرورة توصف بصفات بشرية من ذلك أنها كالرجال والنساء لها انفعالاتها الطاغية وجوانب ضعفها كما أنها تأكل وتشرب وتتزوج وتنجب، لكنها على خلاف البشر خالدة بالآلهة عندما خلقت البشر احتفظت لهم بالموت وأبقت الحياة في يدها.

ولقد اعتقد السومريون أن هناك قوى إلهيه تسمى (مه Me) بواسطتها تتحكم الآلهة في أمور العالم وهذه القوى الإلهية تشمل السيادة، الألوهية، التاج، الكهانة، القضاء، العدوان، الأمانة، المعاشرة الجنسية، الصراع.....، وقد وضع السومريون مئات الأسماء المقدسة وصنعوا كل منها على أنه إله، ولكل إله خاصية مميزة ومناطق مسئولية محددة [١].

---

(١) بارندر، ص١٢، ١٣.

كان (آن – و an – u) إله السماء في الأصل هو الحاكم الأسمى والإله الرئيسي في مجمع الآلهة السومري، وكان في البداية مهتماً بشئون الحكم، ويرمز له بغطاء للرأس ذي قرون علامة على ألوهيته، وكان معبده الرئيسي في أورك Uruk ولكن عندما هزمت مدينة Nippur المجاورة لمدينة أوروك أصبح إلهها إنليل Enlil الليل Elil (سيد الغلاف الجوي والرياح) وأصبح معبده الرئيسي في أكورEkur موضوع توقير عال. وانليل هو المحسن، والجد الأول الذي يعزي إليه خلق الشمس والقمر والنباتات والأدوات الضرورية التي يسيطر الإنسان بواسطتها على الأرض.

وثالث قادة مجتمع الآلهة بعد (أنو) و(إنليل) هو الإله نكي Enki (إله العالم السفلي) المعروف أيضاً باسم (أيا Ea إله الأعماق، فقد حكم المياه في بدايتها وتعزي إليه الحكمة كلها، وفي مقابل استعلاء (أنو) و(إنليل) وغطرستهما نجد أن (أيا Ea) كان محبوباً من البشر ومن رفاقه الآلهة في أن معا. ولما كان يعلم جميع الأسرار فقد أصبح راعي السحرة والحرفيين.

وكان ابنه مردوخ Marduk هو الذي عهد إليه برئاسة مجمع الآلهة كله عندما كانت مدينة بابل هي مركز الدولة القوية التي سيطرت على معظم بلاد ما بين النهرين، وفي ذلك الوقت كان الإله نابوا Nabu ابن مردوخ هو راعي العالم لاسيما الفلك، وفنون الكتابة وقد استولت الآلهة العظيمة عشتار بالتدريج على وظائف كثيرة من الآلهات الإناث السابقات وأصبح اسمها مرادفاً للفظ (الالهة) في حين أنها كانت هي نفسها راعية الحرب والحب في آن معاً.

أما آشور فقد كانت آلهة أخرى موضع تقدير وتبجيل عندها فإله الجو (حدد) يركب العاصفة وهو يرعد كالثور، ممسكاً في يده بشوكة البرق، وعلى الرغم من أنه يجلب الخراب والدمار عن طريق ما يسوقه من فيضانات فإنه كان أيضاً شخصية محبوبة تجلب الرخاء عن طريق المطر.

ولقد احتاجت آشور باستمرار لتأكيد وضعها السياسي والاقتصادي أن تقوم بحملات عسكرية مستمرة، ولهذا نرى آلهتها تتسم بسمات عسكرية مثل نينورتا Ninurta إله الحرب والصيد

وربما هو نفسه نمرود Nimrod الذي يذكره الكتاب المقدس[1].

وظهرت أساطير حول أصل العالم وكيفية خلق السموات والأرض، فالبطل (مردوخ) حارب تعامة أوتيمات Tiamat (تنين البحر) ومعناها الحرفي أليم أفعى الظلام، وقتلها ثم شقها إلى نصفين، فانفتحت كالصدفة فصنع السماء من نصفها الأول والأرض من نصفها الثاني.

وتصور ملحمتا أتراجيس وجلجاميش الطوفان على أنه عقاب أنزلته الآلهة بالجنس البشري. ولقد ظفر البطل في كل ملحمة منهما بالخلود وبقى بفضل ما قدمه له الإله إنكي من تحذيرات (أو الإله أيا Ea) وكذلك عن طريق بناء سفينة تهرب عليها عائلات البشر والحيوانات.

الملك مثل الآلهة على الأرض أو أنه ينوب عنها، فقد منحته الآلهة السلطة لكي يتصرف نيابة عنها، وهي تتوقع منه أن يعامل الناس بالعدل وبلا محاباة، بحيث يدافع عن الضعيف أمام القوي، وأن يكون نصيراً لليتامى والأرامل، وقد كان يوجه الاعتبارات الأخلاقية لما تجلبه من رضا الآلهة وبركاتها وما يمنع لعناتها، وقد كانوا يعتقدون أن سلامة الملك تقوم عليها سلامة الجماعة، ولهذا فإنها تتخذ إجراءات عامة لضمان ذلك.

وما يقوم به الملك طوال حياته من أعمال يحكمه طقوس دينية واحتفالات تضمن طهارته وتحرس شخصه والملك يعهد إلى كهنة مختصين ببعض الواجبات الخاصة وتقديم القرابين والمسح بالزيت وتلاوة التعاويذ والرقى عن طريق الغناء والإنشاد الديني[2].

---

(١) بارندر، ص١٧.

(٢) بارندر، ص٣٣.

الخطيئة والعذاب:

هناك أخطاء تستوجب القصاص الإلهي في صورة المرض أو الاضطراب، بل وحتى الموت. أما نتائج الأفعال الحسنة فكانت تسجل أيضاً. وهنا نصوص من التعاويذ تصف الإثم بأنه ذلك الذي يأكل ما حرمه على آلهة أو يحتقر آلهته أو يسخر منها، أو ينطق بالباطل ولا يحكم بالحق، وهو الذي يظلم الضعيف ويباعد بين الابن وأبيه وبين الصديق وصديقه ولا يعتق الأسير، ويمكن أن تغفر هذه الخطايا بتلاوة تراتيل التوبة والصلاة أو النواح، كذلك يمكن التحرر فيها بتقديم قربان التكفير[1].

الطاعة جوهر الحياة الفاضلة عند العراقي القديم:

آمن إنسان وادي الرافدين بأن كل ما في الكون يسير حسب (خطط) إلهية تستند على قواعد ونواميس مقررة وما على الإنسان إلا ينقاد لها طائعاً مختاراً لأن الآلهة استهدفت من ورائها خير الإنسان وعدالته، كما استهدفت تسيير الكون دونما اضطراب أو خلل فوضعت له نظاماً دقيقاً عادلاً من أجل الحفاظ على التوازن والانسجام الكلي فيه، ما على الفاضل إلا طاعته.

واحتلت فضيلة (الطاعة) الواعية موقعاً مهماً في الأخلاق الرافدية تعضدها مفاهيم خلقية ظهرت في مجرى التطور اللاحق لمدارك ووعي الإنسان الرافدي، أهمها (فضيلة الانسجام والتوافق) والحياة الفاضلة هي الحياة "المطيعة" والعصر الذهبي هو عصر الطاعة حيث تندرج فيه هذه الفضيلة من دائرة الأسرة، فالمجتمع، فالدولة والنظام وفق سلطة موجهة، إذ يستحيل في عرف العراقيين القدماء وجود عالم منظم دون سلطة تكون دائماً على (حق) لأنها تطبق (القانون العام) و(النظام الإلهي)، وعلامة التنظيم في حياة الفرد هي الطاعة والتخطيط للمستقبل من أجل حياة أفضل، ومركب الطاعة والتخطيط هو الصحة والعمر الطويل والمركز المرموق والأبناء الكثر، والمال.

---

(١) بارندر، ص٣٤.

وهنا نشيد يصف عصر الطاعة:

يوم يحج المرء عن السفاهة إزاء غيره، ويكرم الأبن أباه
يوم تبين الاحترام جليا فى البلاد، يتحمل صغيراً لقدر الكبير
يوم يحترم الأخ الصغير..... أخاه الكبير
ويرشد الولد الأكبر الولد الأصغر، ويتمسك الأخير بقراراته

ويوصي العراقي القديم دائماً بأن (اسمع كلام أمك كما تسمع كلمة إلهك)، (واحترم أخاك الأكبر)، (واسمع كلمة أخيك الأكبر كما تسمع كلمة أبيك)، (ولا تغضب قلب أختك الكبرى).

وما طاعة المرء للإفراد الذين يكبرونه سنا في العائلة إلا البداية، فوراء العائلة دوائر أخرى الدولة والمجتمع والملك[1].

والعراقي القديم ينظر إلى الجمهور الذي لا قائد له نظرة الاستياء والشفقة، ونظرة الخوف أيضاً. والجنود بلا ملك غنم بغير راعيها.

ولذا يستحيل وجود عالم منظم إذا لم تفرض عليه سلطة عليا إرادتها والفرد هنا يشعر بأن السلطة دائماً على حق (أوامر القصر) كأوامر الإله لا تتبدل، كلمة الملك حق، ونطقه كنطق الإله لا يغيره شيء[2].

الفكر الفارسي : الزراد شتيه

الزرادشتيه من أقدم الديانات الفارسية، ومؤسسها زراد شت أو زور استر Zoroaster وهو الاسم الذي ذاع استخدامه عند اليونان.

وعاش زرادشت في منتصف القرن السابع قبل الميلاد، وتوفي عام ٥٨٣ ق. م، وكان يقيم بازريمان وقد انتشر الدين الذي بشر به من بلخ إلى فارس وذلك على أثر إيمان الملك الفارسي به.

---

(١) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي، دار الهداية، ط٣، ١٩٩٧، ص١٩٧.

(٢) جمال المرزوقي، المرجع السابق، ص١٩٨.

وظهر زرادشت بين أسلافه الميديين والفرس وجد بني وطنه يعبدون الحيوانات كما يعبد أسلافهم، ويعبدون الأرض (أنا هيتا) آلهة الخصب والأرض ويعبدون (ميثرا) إله الشمس و(هوما) الثور المقدس، ولقد ضاق زرادشت ذرعاً بتلك الآلهة البدائية وراح يثور على الكهنة ويعلن أنه ليس في العالم إلا إله واحد هو (أهورمزدا) إله النور والسماء وأن ما عداه ليست إلا مظاهر له وصفات من صفاته.

وقد جمع أصحاب زرادشت أقواله وأفعاله وأدعيته في الكتاب المقدس المسمى (زندافستا) Zend Avesta أو (الابستاق). والفكرة السائدة في الكتاب المقدس هي ثنائية العالم الذي يقوم على مسرحه صراع بين الإله أهورامزدا والشيطان أهريمان، وأن أفضل الفضائل هما الطهر والأمانة ويؤديان إلى الحياة الخالدة.

وأهورمزدا إله الكون كله الذي ليس له شريك وله خصم هو دون في الرفعة وهو أهريمان إله الشر الذي سينهزم على مر الزمان، وأهورامزدا هو دائرة السموات كلها نفسها، يكتسي بقية السموات الصلبة يتخذها لباساً له، وجسمه هو الضوء والمجد الأعلى، وعيناه هما الشمس والقمر ولقد جعل زرادشت من النار الصادرة من الإله أهورامزدا عنصراً مشتركاً بين جميع الموجودات كل شيء يخرج منها، وكل شيء يعود إليها، فهي جوهر وماهية هذا الشيء، إذ أن أهورامزدا قد احتوى على الوجود كله. إنه يعيش في وحدته المترفعة محتوياً على أفكار الخلق الروحي والمادي في عقله، فعقل أهورامزدا بمثابة العالم المعقول الذي يحتوي على أصل الأشياء والأفكار، وأنه عندما تفيض من نوره الأشكال المتعددة تكون بمثابة مرآه لذاته.

إن إله زرادشت يسمو على كل شيء وقد عبر عن هذه الفكرة بعبارات لا تقل جلالاً عما جاد في سفر أيوب يقول: (هذا ما أسألك عنه فاصدقني الخير يا أهورمزدا منذ الذي رسم مسار الشموس والنجوم، منذ الذي يجعل القمر يتزايد ويتضاءل؟ ومنذ الذي رفع الأرض والسماء تحتها وأمسك السماء وارتفع؟ منذ الذي حفظ المياه والنباتات؟ ومنذ الذي سخر الرياح والسحب سرعتها؟ ومنذ الذي أخرج العقل الخير يا أهورامزدا[1].

---

(١) حري عباس عطيتو، الفكر الشرقي القديم، مرجع سابق، ص٨٨.

إن الأساس الذي قامت عليه الزرادشتيه هو مبدأ تعميم الخير وإبادة الشر، وأنه من الوسائل الضرورية لتحقيق هذه الغاية هو تقوية النوع الإنساني ونشر الخصوبة والعمران على الأرض وكذلك وحد زرادشت بين الإله (مازدا) وبين (الخير) وجعلهما اسمين لمسمى واحد، ونتيجة لذلك أصبح الخير قلب الديانة الزرادشتيه وسيعم الكون كله عندما تسود الفضيلة وينهزم (أهريمان إله الشر).

ويعلى زرادشت من شأن إله الخير على إله الشر من ناحية الأخلاق والأبدية، بيد أن هذا الإله مع علوه وسموه وجلاله لم يسلب القوة والإرادة من البشر حتى الأشرار منهم، بل ترك لهم قدراً من الإرادة يكاد يساوي إرادته حتى يكونوا كاملي الحرية في الاختيار.

ورأى زرادشت أنه لكي نفهم الله ونعرفه حق المعرفة يجب أن نتعلم كيف نفهم إخواننا في الإنسانية وفي طريقنا إلى هذا الفهم لابد أن نمر بعدد من علامات الطريق (العدالة-التعاون-الإيمان-السعي وراء الكمال).

وعن المصير الأخروي للروح فنجد صورة للثواب والعقاب، فيذكر زرادشت أنه عندما تنتهي مهمتنا في الحياة فيستدعي كل إنسان ليقدم حسابه عن عمله، وكان لابد لأرواح الموتى بأجمعها أن يجتاز قنطرة ممتدة فوق الجحيم، تجتازها الأرواح الخيرة الطيبة حيث يستقبلهم (أهورامزدا) إله النور وهناك يعيشون حياة كلها سعادة وغبطة في كنف الإله مازدا إلى أبد الدهر.

أي أن الروح الطيبة تلقاها وترحب بها فتاة عذراء ذات قوة وبهاء وهناك تعيش مع أهورامزدا سعيدة منعمة إلى أبد الدهر.

أما الأشرار فإنهم يسقطون في هوة من الظلمة في خارجها يطمعون سماً زعافاً، أما من استوت حسناتهم وسيئاتهم

مزيد من التفاصيل انظر ترانيم زرادشت، ترجمة وتقديم فيليب عطية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣ .

فإنهم يضعون في مكان فسيح بين السماء والأرض يقاسون فيه ألم الحر والبرد ويحسون بجميع التغيرات الجوية ويظلون ينظرون في أمل ورهبة الحكم الأخير على مصيرهم وكان من الطقوس والممارسات الشعائر المتعلقة بالزرادشتيه أنهم كانوا يتخذون النار إلهاً يعبدونه ويسمونه (أنار) وينشئون المذابح المقدسة ويوقدون فيها النيران تكريماً (لأهورامزدا) فضلاً عن أن كل أسرة كانت تجتمع حول موقدها في سبيل أن تظل نار بيتها موقدة لا تنطفئ أبداً[١].

ومن أهم التعاليم الأخلاقية الزرادشتيه ما يلي:

- الحفاظ على ما يسمى بحسن السمعة حتى يمكن أن تفوز بالاحترام.
- أن تتجنب كل الظروف التي تجعلك تتردى في الخطايا.
- أن تعترف علانية بالخطايا التي ارتكبتها، إذ بتخلصك مما هو شر يبقى على عقلك صافياً.
- يجب على الفرد أن يكون ورعاً تقياً مطيعاً لكل من معلمه وكاهنه وأن يكون قدوة للجميع.
- واجب الإنسان عندهم أن يفعل الفضيلة ويقول الصدق والحق.
- عدم الخروج على القوانين التي وضعها إله الخير (أهورامزدا) ليجنب نفسه ومجتمعه سخط إله الشر ومن ثم فهو يعمل على انتصار الخير على الشر.
- إن على الإنسان واجبات ثلاث أن يجعل العدو صديقاً وأن يجعل الخبيث طيباً وأن يجعل الجاهل عالماً.
- الالتزام بالفضائل ولذلك فإن واجب الإنسان أن يتجه إلى عبادة الله بالطهر والتضحية والصلاة [٢].

وقد مارس زرداشت أو زوراستر Zoroaster نشاطه في

---

(١) حري عباس عطيتو، مرجع سابق، ص٩٨.

(٢) حري عباس عطيتو، الفكر الشرقي القديم، ص٩٨.

شمال شرق إيران، ووصلتنا تعاليم زاردشت في سبع عشرة ترنيمة من ترانيم المسماة جاثا Gathas وعلى الرغم من أنه يصعب ترجمتها فإن حماسه وحبه لله وحكمته كانت أموراً مذهلة. إن الله عند زاردشت هو السيد المهين الحكيم، أهورمزدا، خالق السموات والأرض، وهو الأول و الآخر، ومع ذلك فهو أيضاً الصديق الذي دعاه من البداية، ولا يمكن أن تكون لله علاقة بالشر، فروحه المقدسة هي التي تقيم الحياة وتخلق الرجال والنساء. وتعارضه الروح الشريرة أو القوة المدمرة التي تتسم بالنوايا الشريرة، والتكبر والكذب، وعلى البشر أن يختاروا بين هاتين القوتين المتعارضتين أو بين التوأم من الآلهة، فإن سلكوا طريق الشر فسوف تمتلئ حياتهم بالأفكار الشريرة والكلمات الشريرة والأعمال الشريرة وإن سلكوا طريق الحق فسوف يشاركون في العقل الخير، ويبلغون الكمال والخلود والورع.

والله هو الموجود الأعظم والأفضل والأسمى من حيث الفضيلة والاستقامة والخير، والله لا يمكن أن يكون مسئولاً عن الشر، لأن الشر جوهر مثله مثل الخير، وكل منهما يرجع في النهاية إلى سبب أول هو الله، والشيطان أهرمان Ahriman الموجود بصفة مستمرة والمسئول عن كل شرور العالم، وعن الأمراض والموت والغضب. وبما أنهما جوهران متعارضان تعارضاً أساسياً فهما لا محالة يشتبكان في صراع. وهناك صراع بين الله والشيطان، وسوف ينهزم الشيطان في النهاية.

وزاردشت لم يقابل بين الروح والجسد كما فعل القديس بولس، لأن النفس والبدن وحدة واحدة، وإذا ما انسحب المرء من العالم كما يفعل الناسك، فإنه بذلك ينبذ عالم الله. ومن هنا كان الزهد

خطيئة كبرى مثله مثل الانغماس في الشهوات[1].

وعلى الرجال واجب ديني يفرض عليهم أن تكون لهم زوجة وأطفال وبذلك يزيدون من أتباع ديانة الخير ومن المؤمنين بالأفعال المقدسة. كذلك حرث الأرض وفلاحها ورعي الماشية، ولما كانت الصحة هبة من الله، فإن على جميع البشر أن يسعوا إليها لكي تصح أجسامهم (فالعقل السليم في الجسم السليم، وهذا بدوره يمكن الإنسان من القيام بالأعمال الصالحة).

وللزرادشتيه أخلاق اجتماعية قوية، وفي مقابل الهندوسية، نجد أخلاقياتها في أساسها إيجابية فعالة، فالعمل هو ملح الحياة. لكن خلق الشخصية لا يعبر عنه فقط فيما يفعل المرء ويقوله، بل بأفكارهما. ولابد للناس أن يقهروا بعقولهم الشكوك والرغبات السيئة، وأن يقهروا الجشع بالرضا، والغضب بالصفاء والسكينة، والحسد بالإحسان والصدقات، والحاجة باليقظة، والنزاع بالسلام والكذب بالصدق[2].

الفكر العبري

إن تاريخ الإسرائيليين القديم يستحيل إثباته من أي مصدر غير (العهد القديم) ومحال علينا أن نعلم عند أي نقطة يبدأ ذلك التاريخ في ألا يكون مجرد أساطير من نسج الخيال، فربما جاز لنا أن نقبل (داود) و(سليمان) على أنهما ملكان لهما وجود فعلي، لكن أول مرحلة نصل إليها بحيث نجد أنفسنا إزاء شيء لا شك في حقيقته التاريخية، نرى عندها أن ثمة مملكتين قد قامتا بالفعل، وهما مملكة إسرائيل، ومملكة يهوذا، فأول شخص مذكور في العهد القديم

---

(١) بارندر، ص١٢٠.

(٢) بارندر، ص١٢١.

ممن تؤيد وجودهم وثائق غير العهد القديم نفسه هو أهاب Ahab ملك إسرائيل الذي ذكر في خطاب أشوري عام ٨٥٣ ق. م فقد انتهى الأمر بالآشوريين إلى غزو المملكة (الشمالية) سنة ٧٢٢ ق. م، وبعدئذ أصبحت مملكة يهوذا وحدها هي التي تصون الديانة والتقاليد الإسرائيليتين، ذلك أن مملكة يهوذا قد أفلتت من اعتداء الآشوريين بعد أن كادت تقع في نطاقهم، إذ بلغ سلطان الآشوريين ختامه باستيلاء البابليين والميديين على نينوي سنة ٦٠٦ ق. م. غير أن (بنوخذ نصر) قد استولى سنة ٥٨٦ ق. م على أورشليم، ودمر المعبد وأبعد جانباً كبيراً من سكانها إلى بابل، ثم سقطت مملكة بابل سنة ٥٣٨ ق.م حين اغتصب كورش ملك الميديين والفرس بمدينة بابل، وأصدر كورش سنة ٥٣٧ ق. م مرسوماً يبيح لليهود العودة إلى فلسطين، فعاد الكثيرون منهم تحت قيادة (نخمتا) و(عزرا) وأيد بناء (المعبد) وأخذت العقيدة اليهودية الأصلية تتبلور في نصوص محدودة.

ولقد طرأ على الديانة اليهودية تطور غاية في الأهمية، إبان فترة الأسر، وقبلها إلى حين وبعدها إلى حين فمن الوجهة الدينية، يظهر أنه لم يكن أول الأمر اختلاف كبير بين الإسرائيليين وبين القبائل المحيطة بهم فلم يكن (يهوا) بادئ ذي بدء سوى إله قبلي يقرب إليه أبناء إسرائيل، لكن أحداً لم ينكر أن قد كان ثمة آلهة أخرى، وأن عبادة الناس لهذه الآلهة كانت قائمة، فإذا ما جاءت (الوصية) الأولى تقول (لا ينبغي لك أن تعبد آلهة من دوني) فإنما كانت بذلك تعبر عن حقيقة جديدة بالنسبة للعصر الذي سبق الأسر مباشرة، فإنك لتجد في أقوال الأنبياء السابقين نصوصاً كثيرة تؤيد هذه الحقيقة، فالأنبياء في هذا العصر هم أول من راح يعلم الناس بأن عبادة الآلهة الوثنية خطيئة وأذاعوا في الناس بأن النصر في حروب ذلك الزمان التي لم تنقطع، مرهون برضا (يهوا) ولا يتردد (يهوا) في منح رضاه عن الناس إذا هم كرموا آلهة أخرى سواه، والظاهر أن (إرميا) و(حزقيال) هما اللذان ابتكرا الفكرة القائلة بأن كل العقائد الدينية باطلة إلا واحدة وأن (الله) يعاقب على الوثنية[١].

---

(١) برتراندرسل، تاريخ الفلسفة الغربية، جـ٢، ص١٦.

تروي الأسفار السبعة الأولى في العهد القديم أن العبرانيين انحدروا من إبراهيم زعيم آرامي من عشيرة كان موطنها الأول في أقصى الجنوب من أرض الجزيرة بإقليم (أور).

وينسب العبرانيون إلى تاريخ أبي إبراهيم زعامة القبيلة أثناء هجرتها نحو الشمال وبعد وفاة تارح قاد ابنه إبراهيم جزءاً من هذه القبيلة متنقلاً به في صحراء الشام بين الجنوب والغرب ملتمساً مواطن الكلأ لماشيته حتى وصلوا تخوم مصر، وسمح لهم المصريون بالإقامة، فأقاموا زهاء سنة ثم تابعوا تجوالهم، كعادةالرعاة، فأخذوا يزرعون صحراء الأردن شرقاً وغرباً، وكانت هذه المنطقة تموج بعديد من القبائل السامية مثل الآمونيين والعموريين والأدوميين والخبيرو والأرامين والمؤابين والعماليق، وكانت هذه القبائل في صراع دائم، وقد لجأت قبائل يوسف العبرية إلى مصر وسكنت شرق الدلتا.

وكان يسكن المنطقة الداخلية من فلسطين القبائل الكنعانية، وكانت فلسطين نفسها تسمى (أرض كنعان) أما الساحل فكانت تسكنه قبائل الفلسطين الكريتية التي هاجرت من الجزر الايجية وخاصة كريت نتيجة غزو موجات من الآرين الذين زحفوا جنوباً على هذه الجزر ونهبوا كنوس عاصمة كريت ١٤٠٠ ق. م ودفعوا أهلها إلى الهجرة بأعداد وفيرة إلى سواحل البحر المتوسط الشرقية والجنوبية حيث فلسطين ومصر وأسسوا مدن غزة وجات وأسدود وعسقلان وعترون.

وتحالفت القبائل العبرية التي كان يقودها إبراهيم مع قبائل الحابيرو الذين استعانوا بالخيانة والغدر لاحتلال فلسطين التي كانت تابعة لمصر في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

وتزعم موسى ثورة من قبائل يوسف في مصر في عهد مرنبتاح بن رمسيس الثاني هرباً مما لاقوه من انتقام رمسيس الثاني نتيجة غدرهم بالمصريين.

وكان موسى قبل ذلك قد وثق صلاته بقبائل البدو بزواجه

مزيد من التفاصيل انظر أحمد مرسي، الفولكلور والإسرائيليات، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠١.

من ابنة زعيم قبيلة مدين واستطاع بعد هروبة من مصر أن يجمع بعض القبائل البدوية في شعب واحد بعد تجوال طويل في شبه جزيرة سيناء واتخذوا لهذا الشعب إلهاً خاصاً هو (يهوه) استعاره من قبيلة كانت تسكن حول جبل في سيناء. إذ رأى موسى تشابهاً بين معتقداتها والمعتقدات السامية الشائعة، ونشأت اليهودية من الجمع بين اعتبار (يهوه) إلهاً واحداً وبين طقوس العبادة في المعابد التي اقترحها حزقيال [1].

وقاد موسى جموع شعبه إلى واحة قادش وعبرت قبائل يوسف نهر الأردن بزعامة يشوع، ولكنها لم تصادف نجاحاً تاماً. فاضطرت إلى الدخول في معارك ضارية مع القبائل الأخرى. واتخذت بعض القبائل الكنعانية (يهوه) إلهاً لها وتولى قادتها (القضاة) شئون الحكم فيها، وانضمت إلى القبائل العبرية في حروبها.

وطال الصراع بين العبرانيين وحلفائهم الكنعانيين والفلسطينيين وأدى هذا الصراع إلى أن تستقر بعض القبائل في الشمال مكونة دولة يهوذا، وأن تستقر بعض القبائل في الجنوب مكونة دولة إسرائيل، وتفصل بين المجموعتين قبائل كنعان المستقلة في الداخل والقبائل الفلسطينية على الساحل.

ودخل الإسرائيليون في حروب كثيرة ضد الكنعانيين والفلستين وانهزم الإسرائيليون هزائم منكرة فاختاروا شاوول ملكاً عليهم، ولكنه قتل عندما انتصر عليه الفلستين في جلبوع وقدموا دروعه إلى معبد مينوس الفلستيني قرباناً.

وغزا داوود ملك يهوذا أورشليم التي كانت مركزاً لإحدى القبائل وجعلها عاصمة له، ثم حارب المؤابين والأمونيتين والأدومبين وانتصر عليهم ولكن العداء بين يهوذا وإسرائيل كان قوياً. وتبع داود ابنه سليمان (٩٧٣-٩٣٣) ق. م الذي تحالف مع فرعون مصر، ومع حيرام ملك صور، وأثرى كثيراً من التجارة ومع ذلك أدخل نظام الضرائب والسخرة، وكان مغرماً بالبناء فأقام المعبد الملكي وسوراً حول أورشليم، وقد بالغ الكتاب الإسرائيليون (في العهد القديم) بالإشادة بعظمة حكمة وثراء الدولة في عهده،

---

(١) عبد المجيد عبد الرحيم، ص٤٣، ٤٤.

ولكن ذلك لا يقاس بعظمة أي ملك مصري أو بابلي.

ولم يتمسك اليهود بإلههم دائماً بل عبدوا (بعل) إله مدينة صور، كما عبدوا (آمون) إله المصريين وحالفوا كل دولة تقوى ضد كل دولة يظنون ضعفها، فكانوا كالمقامرين يكسبون حيناً، ويخسرون في أغلب الأحيان، لذلك تعرضوا لكثير من النكبات، فتآمرت إسرائيل ضد سارجون فاستولى على عاصمتها ساريا ونفى أكثر من سبع وعشرين ألفاً من أهلها. وبذلك قضى على دولة إسرائيل وتحالفت يهوذا مع آشور ضد مصر فاجتاحتها جيوش الفرعون نخاو الثاني في موقعة مجدو (٦٠٩) ق. م. وانضمت إلى مصر ضد بابل فاجتاحتها جيوش بختنصر الذي أنتصر علىنخاو في موقعة قمريش (٦٠٥) ق. م وضرب بختنصر أورشليم ٥٨٦ ق. م وساق غالبية الشعب العبري أسرى إلى بابل [١].

وهكذا انتهت القرون الأربعة التي عاشتها المملكة العبرانية، وكانت من بدايتها إلى نهايتها مجرد حدث صغير على هامش أحداث تاريخ مصر وسورياً وآشور وفينيقيا، ذلك التاريخ الأكثر سعة وعظماً.

وفي بابل كتب العبرانيون تاريخهم وأدبهم وبكوا طويلاً على ماضيهم وبالغوا في تصوير أمجادهم، ومن ذلك التسجيل نشأت كتب العهد القديم إلا قليلاً مما أثر على موسى في الأسفار الخمسة الأولى.

ولما انتصر قورش الفارسي على بابل ٥٣٩ ق. م سمح لليهود الذين أزروه بالعودة إلى أورشليم وأعطاهم ما بقي من خزائن بابل من أنيتهم الثمينة التي كان قد نهبها بختنصر عندما دمر أورشليم عن آخرها، وسمح قورش أيضاً بإعادة بناء الهيكل وممارسة عبادتهم.

ولكن اليهود الذين عادوا إلى أورشليم بأمر قورش كانوا شعباً يختلف في الدم والحضارة عن أولئك الأسرى الذين استاقهم بختنصر إلى بابل فإن هؤلاء الأسرى اختلطوا بالشعب البابلي وأخذوا عنهم ثقافتهم وحضارتهم كما دخل كثير من البابليين في

---

(١) عبد المجيد عبد الرحيم، ص٤٦.

الديانة اليهودية، ولذلك لا نعجب كثيراً إذا رأينا كثيراً من الأفكار التي احتواها العهد القديم مقتبسة من الثقافة البابلية مثل قصة الخلق وقصة الطوفان، وآدم وحواء، وقصة حياة موسى.

ولعل ثقافة بني إسرائيل في القرن الثامن كانت في أغلبها بابلية، فإننانجد لشرائعها أو سننها وعاداتها الاجتماعية نظائر في أرض الجزيرة، وليس من المعقول أن بني إسرائيل استعاروا هذه الشرائع والسنن والعادات مباشرة، وإنما الأقرب إلى المنطق في تفسير هذه الحقائق هو أن الكنعانيين هم الذين انتقلت هذه الأشياء بواسطتهم إلى العبريين، إلا أنه يظهر أن الخزف والعمارة وصياغة المعادن عند بني إسرائيل قد تأثرت في فلسطين ومصر.

والثابت تاريخياً أن اليهود قد اقتبسوا كثيراً من ثقافة المصريين حينما نزلوا لديهم مثلما اقتبسوا من ثقافة البابليين. ويقارن المؤرخون بين أقوال أمينوي الحكيم المصري القديم (القرن العاشر قبل الميلاد) وبين آيات سفر الأمثال وسفر الملوك في العهد القديم فيجدون تماثلاً يكاد يكون تاماً كما يجدون تشابهاً بين صلوات إخناتون للإله آتون وبين أقوال أنبياء العهد القديم [1].

وفيما عدا ذلك نجد العهد القديم ما كتب فيه بعد الأسر حافلاً بكثير مما يعكس نفسية الشعب المضطهد المريض بكراهية الناس وحب نفسه والناقم على كل الشعوب لأنه أحق منها بكل ما لها من خير، لأنه شعب الله المختار، فلعن كاتبوا العهد القديم كل الشعوب التي حاربت العبرانيين وشوهوا تاريخها.

وفي بعض الفقرات نثبتها هنا، لتوضح لنا تعاليمهم، كما نوضح انتشار الشعائر الوثنية التي كانوا يناهضونها: ألست ترى ما يصنعون في مدن يهوذا وفي طرقات أورشليم؟ إن الأطفال يجمعون الحطب، والآباء يشعلون النار، والنساء يعجن العجين

---

(١) عبد المجيد عبد الرحيم، ص٤٨.

مزيد من التفاصيل انظر رجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، جذورها في التاريخ الغربي، عالم المعرفة، ديسمبر، ١٩٨٥.

ليخبزن الكعك لمملكة السماء (عشتروت) ويصببن الشراب لسائر الآلهة ويحرقون أبنائهم وبناتهم في النار وذلك ما نهيتهم عن فعله، فالله يغضب لمثل هذا.

وفي (أرميا) فقرة غاية في الأهمية، يهاجم يهود مصر لوثنيتهم، فترى النبي ينبئ اليهود اللائذين بمصر أن (يهوا) سيفنيهم جميعاً، لأن زوجاتهم قد حرقن البخور لآلهة أخرى. وعندما لاحظ يهوذا هذه الأفعال الوثنية قال: لقد أقسمت باسمي العظيم أن اسمي لن يجري بعد الآن على لسان رجل من يهوذا، في أرجاء مصر كلها، سأرقب أهل يهوذا لتلحق بهم الشر، لا ليصيبهم الخير، وسيكتب على أهل يهوذا جميعاً، الذي يسكنون أرضي مصر، أن يفنوا بالسيف وبالمجاعة حتى يزولوا فرداً فرداً.

ولو كان (يهوا) قادراً على كل شيء، وإذا كان اليهود (شعبه المختار) لما وجدنا تعليلاً لما كان يعانيه اليهود من عذاب إلا سوء أفعالهم، والموقف النفسي هنا موقف الوالد يرى أبناءه، فاليهود ينالون العقاب لكي يطهروا من آرائهم، وقد فعلت بهم هذه العقيدة فعلها وهم في المنفى، بحيث طوروا في أنفسهم تعصباً أشد عنفاً وأسرف تطرفاً في الروح القومية التي لا تقبل في الشعب دخيلاً.

وكان اليهود يتميزون عن سائر أمم العالم القديم باعتدادهم القومي الذي ذهبوا فيه إلى حد العناد، فكل من عداهم كانوا إذا أصابهم الغزو، يستسلمون باطناً وظاهراً، أما اليهود فهو الشعب الوحيد الذي احتفظ لنفسه بعقيدته في امتيازه على سواه، وبإيمانه بأن ما أصابهم من الكوارث، إنما جاء نتيجة لغضب الله، لأنهم قصروا في صيانة ما لعقيدتهم الدينية ولطقوسهم من صفاء. وأخذت تنمو بين اليهود كل العوامل التي تعمل على تميزهم.

(أنا الله مولاكم الذي فصل بينكم وبين سائر الناس)

(إنكم ستكونون شعباً مقدساً، لأني -أنا مولاكم-مقدس)[1].

---

(١) برتراندرسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ج٢، ص١٨، ١٩.==

وأخذوا يعنون بالختان ليكون علامة تميز اليهودي عن غيره، ويزيدون من عنايتهم بيوم السبت ومبادئهم الخلقية نراها مبسوطة في سفر الجامعة الذي ربما كتب حوالي سنة ٢٠٠ ق. م وهنا نجد الأخلاق مصطبغة بصبغة دنيوية إلى حد بعيد.

(حسن الأحدوثة بين الجيران له قيمة كبرى)

(الصدق خير سياسة) (التصدق مشكور)

(لا ينبغي أن نبالغ في الرأفة مع العبيد، فالعلف والعصار والأثقال للحمار، وكذلك الخبز والتأديب والعمل للخادم، أشغله في عمل، فذلك ما يصلح له، فإذا لم يكن مطيعاً زده أغلالاً على أغلال. واذكر في الوقت نفس أنك قد دفعت ثمنه وأنه إذا فر هارباً فقد ضاع عليك مالك. وفي هذا الحد للشدة النافعة.

(البنات مصدر قلق نفسي عظيم) و(من المرأة يأتي الخبث).

من الخطأ أن تكون مرحاً مع أبنائك والتصرف الصحيح معهم هو أن تحني رقابهم منذ الصغر.

والتعاليم الخلقية اليهودية قريبة الشبه جداً بتعاليم الأناجيل.

(ليحب كل منكم زميله من قلبه، وإذا أخطأ أحد في حقك فتحدث إليه في رفق، ولا تحمل في نفسك ضغينة، وإذا ندم الخاطئ واعترف بخطئه، فسامحه، أما إذا أنكر وقوع الخطأ منه فلا يأخذنك الغضب منه، حتى لا تنتقل عدوى العاطفة منك إليه فيأخذ في السباب وعندئذ يصبح خطؤه ضعفين. وإذا لم يكن ذا حياء، ومضى في اقترافه الخطأ فسامحه من قلبك، واترك الانتقام لله.

أحب ربك وجارك.

أحبوا ربكم طوال حياتكم، وأحبوا بعضكم بعضاً من قلوبكم.

أحب ربي كما أحب كل إنسان بكل قلبي.

مزيد من التفاصيل انظر جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، (التوراة)، جزئين، ترجمة نبيلة إبراهيم، دار المعارف، ١٩٨٢.

الغضب أعمى، ولا يسمح لإنسان أن يرى وجه إنسان آخر رؤية الحق.

الكراهية إذن شر، لأنها دائماً تقترن بالكذب[1].

الفكر الاجتماعي في الصين

تقف الصين وحدها وسط حضارات العالم العظيمة فقد تطورت في عزلة تامة، تقريباً، عن بقية الحضارات، ولهذا كانت إنجازاتها فريدة. وهذه الخاصية الفريدة جعلتها في آن معاً ممتعة لمن يشاهدها، محيرة لمن يحاول فهمها، أجل فقد تطورت الصين بنفسها وساعدتها على ذلك عزلتها الجغرافية عند النهاية الشرقية القصوى (في الطرف الشرقي الأقصى) من العالم الأوروبي الأسيوي القديم، تحيط بها جبال وصحراء ولا تمر بها أية طرق للتجارة.

كان الشعب الصيني في تراثه التقليدي يعتبر نفسه مركزاً للكون. وكلمه شنج – كيو Chun-Kuo وهي الاسم الصيني للصين. تعني حرفياً (مملكة الوسط) فقد عد الصينيون أنفسهم، على نحو ما فعل الإغريق، جزيرة من الثقافة وسط بحر من التوحش والهمجية.

ويبدأ التاريخ المسجل للصين بأسره شانج Shang التي استمر حكمها من القرن السادس عشر حتى القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وكانت سجلاتها تتألف من مجموعة من العظام نقشت عليها نبؤات، وتم اكتشافها قرب نهاية القرن التاسع عشر، حيث أصبحت منذ ذلك الحين المصدر الرئيسي لتاريخ أسرة (شانج) كانت هذه العظام إجابات عن أسئلة قدمت إلى العرافين، وكانت الأسئلة تحفر على عظام الحيوانات والقواقع والأصداف، وتوجه إلى الأرواح طلباً للهداية والإرشاد. وبعد أن يحفر السؤال يقوم العراف بتسليط النار على ثقوب يحدثها في العظم ثم يؤول ما ينتج عن الحرارة من تصدعات بأن الأرواح تجيب ببشائر خيراً ونذير

---

(١) برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ص٣.

شؤم[1].

ونحن نحصل من طبيعة الأسئلة المطروحة على صورة لمجتمع ينظمه، في كل جانب تقريباً، من جوانب الحياة اليومية – التنبؤ بالغيب، وتحكمه اعتبارات الحظ الحسن أو الفأل السيء، أما (القوى) التي يستشيرونها في عملية التنبؤ بالغيب فهي أرواح الموتى من الملوك أو تي Ti وكذلك أرواح الأسلاف. ونحن نعرف أن هناك عنصراً جنسياً في هذه العبادة، وذلك من الآثار الباقية من أشكال الخطوط التي لا يزال من الممكن تمييزها. ولكننا نعرف أيضاً من الأسئلة التي تطرح حول آداب تقديم القرابين وتأدية الطقوس، أن آلهة التلال والأنهار وغيرها من آلهة الطبيعة والأرواح الحارسة كانت تعبد إلى جانب أرواح الموتى، ولم يكن الموتى وحدهم هم الذين يسألون عن الهداية والإرشاد في مسائل السلوك، بل كان يتوسل إلى قوتهم الداخلية (مانا) Mana حتى تكفل خصوبة الرجال والنساء والمحاصيل والحيوانات.

ولم تكن الأرواحية أو الأنيمزم Animism (عبادة آلهة الطبيعة) وطقوس الخصوبة وعبادتها – ولاسيما عبادة الأسلاف – مجرد مظاهر لأقدم الممارسات الدينية الصينية التي حفظها التاريخ فحسب، وإنما هي تتكرر في صور منوعة ومختلفة في (الديانة الشعبية) للعصور التالية [2].

الملك ابن السماء: كان ملوك الصين ملوكاً وكهنة في آن واحد، وتعتمد سيادة الملك على أن السماء هي التي قلدته منصبه، وعندما ثار (ون Wen) على أسرة شانج تولى ابنه الملك (وو

---

(١) جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص٢٧٠.

مزيد من التفاصيل عن الحضارة الصينية انظر:

Rudd. H; Chinese Social Origins, Chicago: University of Chicago press, 1948.

(٢) جفري بارندر، ص٢٧١.

مزيد من التفاصيل انظر كريل هـ. ح، الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماو تسي تونج، ترجمة عبد الحليم سليم، مراجعة على أدهم، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٧١.

(Wu) ١٠٢٧ – ١٠٢٥ ق. م العرش وأسس أسرة تشو. وحكمت هذه الأسرة على نحو ما تؤكد وثائق عهدها، معتقدة أن رسالتها قد قضت بها السماء، فالسماء هي التي أزاحت أسرة شانج وأنهت تفويضهم بالحكم، وهي التي كلفت أسرة تشو الملكية بتولي هذا المنصب الذي هو (تفويض من السماء).

وتعتقد أسرة (تشو) أن الإله الأعلى هو السلف الأعظم (شانج – تي Chang – Ti) وهو لفظ مرادف لـ تين Tien (أي السماء) وتمسك السماء – أو هكذا كان الاعتقاد السائد – بيدها الكون بأسره، وتقضي بتعاقب الفصول في مواقيتها وتأمر بدورة الموت والتجدد، وتكفل خصوبة الرجال والنساء والحيوانات والمحاصيل. غير أن السماء تمنح مسئولية تنظيم الكون لوصيتها على الأرض وهو (ابن السماء تين تزو Tien – Tzu ولقد وقع الاختيار على أسرة تشو للقيام بهذا الدور كما تزعم. (وتنظيم الكون) مسألة لابد أن تكون مقبولة عند السماء (بي Pei) عن طريق الطقوس والشعائر ومن خلال تأدية هذه الطقوس التي تستحدث وقائع النظام الطبيعي وتسلسله في الكون ووسط الجنس البشري.

وكانت الوظائف الكهونية للملوك تعتمد على تقديم القرابين للملوك الأموات وإلى شانج – تي Shang Ti الأكثر بعدا، ومن ثم الأكثر قوة من بينهم. كما تعتمد على تقديم تقرير لله عن مسار الأحداث الدنيوية، والانخراط في طقوس إيمانية مثل حرث الأرض، وبذر البذور.

ولقد كانت عبارة (مقبول من السماء) عن طريق الشعائر (باي Pei) هي رخصة الملك إلى السيادة وهي التي تزوده بالنفوذ السياسي القوي الذي يلزم رعاياه بالولاء له، ويساعد الملك في التأدية الصحيحة لواجبات الكهنة.

ويشهد على طبيعة الملك شبه الإلهية اختيار السماء له على أنه ابنها، مما يعطي للملك سلطة سياسية على رعاياه الذين يكلفون بدورهم (بالمناصب) عن طريقه. وكما أن الملك يحكم بفضل (تفويض) السماء له فكذلك بفعل أمراء الإقطاع في مملكته،

إذ تكون لهم سيادة محلية تحت إشراف الملك[1].

الخصائص الأساسية للفكر الصيني:

تقوم الحضارة والثقافة الصينيتان على أساس فلسفي تشكله في المقام الأول مبادئ الكونفوشسية والتاوية والكونفوشسية الجديدة. وقد قامت هذه الفلسفات الثلاث بتشكيل حياة الشعب ومؤسساته، وكانت مصدر إلهام لها عبر ما يزيد على خمسة وعشرين قرناً من الزمان، وكانت الفلسفة الصينية التي أكدت على أهمية المحافظة على الحياة الإنسانية العظيمة ورعايتها مرتبطة أوثق الارتباط بالسياسة والأخلاق، واضطلعت بمعظم وظائف الدين.

ولم يكن الهدف الرئيسي للفلسفة الصينية هو في المقام الأول فهم العالم وإنما جعل الناس عظماء وعلى الرغم من أن الفلسفات الصينية المختلفة يشكل هذا الهدف قاسماً مشتركاً بينها، فإنها تختلف إلى حد كبير نتيجة الاستبصارات المختلفة عن مصدر العظمة الإنسانية. ففي التاوية ينصب التأكيد على اكتساب العظمة بالتوحد مع المنهج الداخلي للكون، ومن ناحية أخرى انصب التركيز في الكونفوشسية على تطوير الإنسانية من خلال النزوع الإنساني للقلب والفضائل الاجتماعية، وتجمع الكونفوشسية الجديدة التي استمدت إلهامها إلى حد ما من البوذية الصينية بين هذين الاتجاهين.

ولكون المرء عظيماً وجهان، في الفكر الصيني، فهو في المقام الأول يتضمن (عظمة داخلية) هي شموخ الروح منعكساً في سلام الفرد ورضائه بكماله. وهو يتضمن ثانيا (عظمة خارجية) تظهر في القدرة على العيش بصورة جيدة على الصعيد العملي، مع الشعور بالعزة في السياق الاجتماعي الذي يوجد فيه المرء في حياته اليومية المألوفة. وهذا المثل الأعلى يسمى (بالحكمة في الداخل والنبل في الخارج) وتعد هذه العظمة المزدوجة شيئاً أساسياً بالنسبة لكل من الكونفوشسية والتاويه.

---

(١) جفري بارندر، ص٢٧٣.

وقد كانت العظمة الداخلية وإظهار هذه العظمة خارجياً إلى جعل الفلسفة الصينية شاملة لكل جوانب النشاط الإنساني، فالفلسفة ليست منفصلة عن الحياة، والممارسة لا يمكن أن تنفصل عن النظرية والاهتمام بالناس يأتي أولاً، فالعالم الإنساني له الصدارة، أما عالم الأشياء فيحتل مرتبة ثانوية.

وقد أدى ذلك إلى التأكيد على الأخلاق والحياة الروحية، فالروح وليس الجسد، هي الجانب الأهم في الوجود البشري وهذه الروح لابد من تغذيتها ورعايتها، لكي تتطور بحسب قدراتها، والهدف هو الوصول إلى مستوى اسمي للوجود الإنساني.

وقد أدى وضع العظمة الإنسانية موضع الممارسة إلى التأكيد على الفضائل العائلية وخاصة على مفهوم حب الأبناء للآباء، الذي يشكل حجر الزاوية في الأخلاق الصينية، فالبيئة المباشرة المحيطة بالصغار في المجتمع المتحضر هي بناء اجتماعي تشكله العائلة، وهنا يجري تشكيل وصياغة شخصية الطفل الأخلاقية والروحية، وهنا يتم إقرار بدايات العظمة، ومن خلال حب واحترام عظيمين في داخل العائلة يمكن غرس العظمة في الأفراد[1].

كونفوشيوس: ولد كونفوشيوس عام ٥٥١ ق. م في مملكة (لو) Lu والتي تعرف الآن بولاية شان تونج Shan – tung فتوفر كونفوشيوس على دراسة الأدب الصيني وألم بثقافات ومعارف عصره إلماماً كبيراً وعرف بفصاحته.

كان كونفوشيوس رزيناً منذ نعومة أظفاره، مثالاً لرفعة النفس وسمو الأخلاق إذ كان يستنكر دسائس الساسة ومؤمرات رجال الدولة وتقلد وظائف هامة وهو في العشرين من عمره، مثل كبير القضاة ووكيل وزارة الأشغال العامة وانتهى به المطاف إلى أن أصبح وزيرًا للعدل.

---

(١) جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ترجمة كامل يوسف حسين، عالم المعرفة، يوليو، ١٩٩٥، ص٣٢٧.

مزيد من التفاصيل انظر:

Cranet, M; Chinese Civilization, New York, 1962.

وكان متواضعاً ولم يكن لديه نزعة التمييز العنصري ويبدو ذلك واضحاً في قبوله لتلاميذه من أحط الطبقات، يقول: (في مجال التربية يجب ألا تكون هناك تفرقة طبقية).

وقدم كونفوشيوس فلسفة إنسانية اجتماعية استمدت مادتها من الأخلاق وكانت تدور حول البشر ومجتمعهم **وقد ناقش أهم المبادئ وهي:**

- **جين Jen:** ومعناها الود أو العطف أو الشفقة، صفة أخلاقية أساسية في الكونفوشية لابد من توافرها في الحكم الصالح. يرى كونفوشيوس أن الجين أو ما يعرف بطيبة القلب الإنسانية، أمر متعلق بالشعور والتفكير معاً وأنه أساس العلاقات الإنسانية كافة، وهنا نلحظ مدى اهتمام الفكر الصيني وتركيزه على القلب وليس على العقل.

- **لي Li:** وتعني قواعد اللياقة أو آداب المجتمع التي تحكم العادات والتقاليد التي تم الاعتراف بها من خلال ممارسة الناس لها عبر العصور.

- **هسياو Hsiao:** وتعني فضيلة توقير العائلة واحترامها وهذه الفضيلة التي تنشأ في العائلة تؤثر في الأفعال خارج المحيط العائلي وتصبح فضيلة أخلاقية واجتماعية. إن حب الأطفال لوالديهم ولإخوانهم يولد حب الإنسانية جمعاءً.

- **يي Yi:** وتترجم بمعنى الاستقامة، فالرجل الأسمى أو النبيل ينظر إلى الاستقامة باعتبارها جوهر كل شيء وهو يلتزم بها بحسب مبدأ آداب المجتمع Li ويبرزها في تواضع ويمضي بها إلى نهايتها في إخلاص [1].

رأى كونفوشيوس أنه لا سبيل للقضاء على هذه الفوضى

---

(١) حربي عباس عطيتو، الفكر الشرقي القديم، مرجع سابق، ص٢٠٤.

مزيد من التفاصيل انظر كارل ياسبرز، فلاسفة إنسانيون، سقراط، بوذا، كونفوشيوس، يسوع ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت، ط٣، ١٩٨٨.

الأخلاقية إلا بالبحث عن تجديد أخلاقي قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس صالح قويم لأن أساس المجتمع هو الفرد المنظم داخل الأسرة المنظمة، فإذا أحسن الفرد حكم نفسه، استقر النظام في الأسرة وبذلك تصلح الدولة ويسهل حكمها ويرى أن الأسرة عاجزة عن تهيئة النظام الاجتماعي الطبيعي لأن الناس ليس بإمكانهم تنظيم أسرهم دون أن يقوموا أنفسهم ويعجزون عن تقويم أنفسهم لأنهم لم يطهروا قلوبهم أي نفوسهم من الشهوات والملذات، وقلوبهم غير طاهرة لأنهم غير مخلصين في تفكيرهم، ولا يخلصون لأن أهواءهم تشوه الحقائق وتحدد لهم النتائج.

وعلى ذلك ينصح كونفوشيوس بضرورة تقويم النفس وإصلاح العقل وبالتزود من المعارف الإنسانية بالقدر الذي يكفل القضاء على بواعث الشهوة الفاسدة الدنيئة.

ووضع كونفوشيوس قواعد الأسرة على أسس فلسفية ورأى أن طريق الفضيلة يبدأ بالأسرة إذ عندما تسود الألفة بين الزوجة والأولاد والزوج، فما أشبه المنزل بربابة وعود قد تآلفت أنغامها وعندما يعيش الأخوة في تآلف وسلام فحينئذ يظل إلى الأبد في وحدة وانسجام ويقول أيضاً: عامل أفراد أسرتك معاملة فاضلة، تستطيع بعد ذلك أن تعلم وتقود أمة بأكملها.

ويرى كونفوشيوس أن القانون الأخلاقي يقوم على أساس فكرة الوسط العدل أو الذهبي، فالاعتدال أصل أساسي في النفس، فالفرد الذي يتصرف أخلاقياً هو الذي يستطيع تحديد القانون الأخلاقي بالضبط، فلا يتعالى عليه أو يغالي في تصرفاته من جهة ومن جهة أخرى لا يصل في تخلقه إلى أقل من مستوى هذا القانون.

ويرى كونفوشيوس أن الحروب التي تهدد العالم إنما مردها إلى فساد الحكم، ويرجع هذا الأخير إلى أن القوانين الوضعية مهما بلغت من الدقة والرقي لا تستطيع أن تحل محل

النظام الاجتماعي الطبيعي الذي تفرضه الحياة الأسرية المنتظمة. فإن كانت الأسرة فاسدة مختلة النظام فلا يمكنها أن تهيئ النظام الاجتماعي المنشود.

ودعا كونفوشيوس إلى توزيع الثروة والعناية بالعجزة والمسنين والأرامل، وناشد الحكام بالجد والاقتصاد من مظاهر البذخ والترف [1].

وبالنظر إلى مظاهر الفوضى الضاربة في مختلف أوجه الحياة الصينية، فقد بدا هم كونفوشيوس الأساسي متمثلاً في كيفية تهذيب النفس الإنسانية وتربية العقل البشري وتنميته من ناحية، ومن الناحية الثانية كيفية العثور على أمير أو حاكم يستطيع أن يعيد الأمور إلى نصابها، وأن يحيل أفكاره في التربية والتشريع إلى قواعد وقوانين منظمة تصلح من أحوال الدولة وتحفظ عليها هيبتها.

وقد أوضح كونفوشيوس أنه لا توجد أية مقاييس أو معايير عقلية نهائية أو مبادئ أخلاقية يمكن القول بأن العقل قد اكتشفها أو أنه توصل إليها قائمة بعيدة عن المجتمع، ومن هذا الإدراك فقد استطاع أن يستخلص إحدى النتائج الرئيسية تلك أن أسمى الأخلاقيات جميعاً هو الواجب الاجتماعي Social duty وأن النظام الوحيد في الكون الذي يمكن أن يشارك بفاعلية في إثرائه وتطويره هو النظام الاجتماعي Social order.

وقد كان هم كونفوشيوس هو كيف يصبح الناس نبلاء فاضلين ليحققوا بذلك العالم الفاضل والسلوك الفاضل يتضمن العديد من الخصائص في مقدمتها الوضوح والصدق والصراحة والغيرية وربما قبل كل هذا حب الآخرين.

والدين بالنسبة لكونفوشيوس هو مجموعة من السلوك الخلقي القويم الذي يتمثل في مواساة اليتيم والبر بالفقراء والمعوزين وحفظ اللسان عن الزلل، وكف اليد عن الاعتداء على الغير، وانتهى إلى مبدأه الأخلاقي الشهير (لا تعامل الناس بما لا تحب أن يعاملوك به). وفي ضوء هذا المبدأ سعى إلى تهذيب

---

(١) حري عباس عطيتو، الفكر الشرقي القديم، ص٢١٦.

السلوك وتنميته، وهذا لا يتم إلا عن طريق التهذيب والتربية [1].

ويهتم كونفوشيوس في حديثه عن الخير، وتهذيب القوة التي تولده وأداء الإيماءات والإشارات المناسبة التي هي علامته الخارجية-يهتم بالأخلاق الشخصية والأخلاق الاجتماعية لأن هذا هو الطريق إلى الإنسان المهذب الحقيقي، أو المثل الأعلى عند كونفوشيوس، وتلك هي إضافة كونفوشيوس نفسه المتميزة للديانة القديمة إذ أضفى على الدين مضموناً أخلاقياً.

ويبدو أن كونفوشيوس أثناء انشغاله بالسلوك الشخصي، وبالواجب الشخصي قد أوحى بأنه لا يهتم إلا قليلاً بعالم الأرواح وعالم ما فوق الطبيعة، لم يتحدث عن مشيئة السماء أو عن معجزات الطبيعة، ولم يتحدث عن الأرواح، وقد أكد كونفوشيوس أن خدمة الإله تصبح لا معنى لها إذا أهملت خدمة الناس، ومن هنا انصب اهتمامه الأساسي على مشكلات الإنسان الأخلاقية والاجتماعية وفي علاقته برفاقه من البشر وذلك هو جوهر تعاليمه.

ولاء الأبناء: الولاء البنوي هو أحد تعاليم كونفوشيوس، وهو باللغة الصينية هسياو Hsiao التي تعني أصلاً الولاء للآباء الموتى وللأسلاف، والواجبات التي ينبغي أن تؤدي لهم كتقديم القرابين والطعام. أما بالنسبة لكونفوشيوس الذي كان يشدد على تأدية الواجب للأحياء، فقد أصبح الولاء البنوي يعني خدمة (الوالدين أثناء حياتهما) ومن ثم اكتملت العلاقات الخمس لتعاليم كونفوشيوس وهي علاقة الأمير بالرعية، وعلاقة الابن بأبيه، والأخ الأكبر بأخيه الأصغر، وعلاقة الزوج بزوجته، وعلاقة الصديق بصديقه. واحترام الابن لأبيه عند معظم الصينيين ينطوي في التطبيق العملي، على مواقف احترام الصغير للكبير، والحب والمودة المتبادلين من جانب الكبير للصغير، فكلاهما جزء من السلوك اليومي بين الأحياء، ومن الالتزام الديني في مراسم العبادة بعد الموت[2].

---

(١) محمود أبو زيد، ص١٩٣.

(٢) جفري بارندر، ص ٢٨٨.

أي أن فلسفة كونفوشيوس فلسفة إنسانية اجتماعية تدور حول البشر ومجتمعهم، وليس حول الطبيعة أو معرفة الطبيعة. ويقول كونفوشيوس أن ما يجعل البشر إنسانيين على نحو فريد هو الجين Jen أو طيبة القلب والتعبير الإنجليزي Human Heartedness . أي أن حب البشر وقدرتنا على الحب تشكل جوهر إنسانيتنا.

ويرى أنه لابد من تطوير محبة البشر ومد نطاقها إلى الآخرين حتى يتحقق قاعدة كونفوشيوس الذهبية الشهيرة (عامل الآخرين بما تحب أن يعاملوك به) أو (لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعلوه بك)، وتتحقق إنسانية الإنسان من خلال الإيثار وقهر الأنانية.

ويؤكد كونفوشيوس على ضرورة احترام آداب المجتمع (لي Li) التي تحكم العادات والعلاقات التي تم الاعتراف بها من خلال ممارسة الناس لها عبر العصور.

ويشير كونفوشيوس إلى ضرورة مراعاة القواعد والأعراف والأخلاق السائدة ومراعاة آداب المجتمع والممارسات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية من جانب كل طرف تجاه الآخر، الحب في حالة الآباء، الولاء البنوي في حالة الأبناء، الاحترام في حالة الأخوة الأصغر، الصداقة في حالة الأخوة الأكبر، الولاء بين الأصدقاء، الاحترام للسلطة بين الرعايا، النزوع إلى الخير في حالة الحكام. أن الانضباط الأخلاقي في السلوك الشخصي، والآداب العامة في كل شيء.

وقد شدد كونفوشيوس على فضيلة الاستقامة (يي Yi) والتي تترجم Righteousness والتي هي جوهر كل شيء وهو يلتزم بها بحسب مبدأ آداب المجتمع (لي Li) ويبرزها في تواضع ويمض بها إلى نهايتها في إخلاص.

والاستقامة تدلنا على الطريق الصحيح للتصرف في مواقف محددة، والقدرة على إدراك ما هو صحيح وتعمل كنوع من الحدس أو الحدس الأخلاقي [1].

---

(١) جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ص٣٥٤، ٣٥٦.

واهتم كونفوشيوس بالأسرة حيث إنها تشكل البيئة الاجتماعية المباشرة للطفل، ففي العائلة يتعلم الطفل احترام الآخرين وحبهم، حيث يأتي الآباء أولاً، فالأخوة والأخوات، والأقارب، ثم باتساع النطاق التدريجي، الإنسانية كافة.

فالولاء البنوي أو هيساو Hsiao هو فضيلة توقير العائلة واحترامها، فأولاً وقبل كل شيء يتم توقير الأبوين، لأن الحياة نفسها مسئولة عنهما، والتوقير ينبغي إظهاره للأبوين من خلال حسن السلوك في الحياة؛ وجعل إسهامهما معروفاً ومبجلاً، وإذا لم يكن بمقدور المرء أن يشرف اسم أبويه فعليه ألا يجلب لهما الخزي والعار على الأقل.

كما تمتاز تعاليم كونفوشيوس بأنها تستبعد الموضوعات المتصلة بتمجيد البطولة الجسمانية والمعجزات والخوارق الطبيعية، وكان كونفوشيوس نفسه شديد العطف على الكائنات الحية، ومما يروى عنه أنه لم يرتدي الملابس الحريرية لأنه لم يكن يستبيح لنفسه أن يقتل دودة القز ليستولى على نسيجها الخاص ليصنع منه ملابس لنفسه، وكان يفخر بأنه لم يستعمل الشبكة قط لصيد السمك، أو أنه لم يرم طائراً بسهم، وكان مبدؤه السلوكي أن الإنسان عليه أن يرد على الإحسان بالإحسان، وكذلك دعا كونفوشيوس إلى أن يقوم كل مواطن بواجبه حيال الدولة على الوجه الأكمل وأن يكون رائد كل فرد العدل والاستقامة [1].

وقد أكد كونفوشيوس ضرورة ارتكاز المعرفة على الفضيلة، بل إن الفضيلة والعلم في نظره صنوان، فليس هناك أفضل من أن يداوم الإنسان على طلب التعلم ويثابر عليه أن الرجل المتعلم يكون متفوقاً بالطبع، والرجل المتفوق لا يعرف القلق أو الخوف، ثم إنه يوصي من وفق في تحصيل العلم أن يقوموا بتعليم غيرهم، فعلى المتعلم ضريبة تعليم من حالت ظروفه الاجتماعية دون ذلك.

وأشار كونفوشيوس إلى الشروط التي يجب توافرها في الحاكم الصالح ومنها أن يلتزم فضيلة الاعتدال والتوسط فيكون

---

(١) أحمد الخشاب، ص٣٥٢.

جواداً في غير إسراف؛ جاداً في طلب ما يرغب دون جشع، وأن يكون مهيباً دون عنف أو شراسة. وأن يؤيد القضايا والمبادئ السامية دون كبرياء أو غرور. وأن يكل تصريف الأمور إلى الشعب دون تذمر، وبذلك يمكننا أن نقر أن تفكير كونفوشيوس انطوى على المبدأ السياسي الهام، ألا وهو سيادة الشعب في نظره يجب أن يكون المصدر الحقيقي للسلطة السياسية، ونندد بالحكام الذين يغفلون هذا المبدأ، بل إنه برر عن طريق تحمسه لهذه القاعدة السياسية الكبرى، الثورات التي زخر بها التاريخ القديم للصين ضد بعض الأباطرة الظالمين.

ويبدو أن كونفوشيوس لم يتحرر مع ذلك من الآراء الثيوقراطية إذ أنه كان يرى أن الحاكم إنما يستمد سلطته المطلقة من الآلهة، فيجب أن يعمل وفق مشيئتها، غير أن الحكم ليس حكماً مطلقاً لأن الآلهة إنما يمنحون سلطة الحكم لمن يرضى الشعب عن ولايته له، ولا يعطي الشعب ولايته إلا لحاكم عالم عادل، وإلا سقطت ولايته وجاز عزله [1].

التاوية:

التاوية من المدارس الفلسفية المعارضة للكونفوشيسية رأسها لاو-تسي أو المعلم العجوز حيث أن (لاو) تعني العجوز و(تسي) (المعلم) وولد لاو-تسي حوالي عام ٦٠٤ ق. م وتشير كلمة (تاو) إلى الدرب أو الطريق وهي تعني في التاوية المصدر أو المبدأ الذي يعمل على أساسه كل ما هو موجود وكلمة (تاو) عرفت بمعاني متعددة منها (الصراة السوى)، (واجب الإنسان) أو (الفضيلة العليا) أو (الغاية المثلى) والتاوية (الطاوية) هي فلسفات دعاة السكينة والطمأنينة، وانصب اهتمام هذه الفلسفات على (العالم الآخر) وسعت إلى إدراك الذات وتهذيب النفس من خلال تمرينات (اليوجا) للوصول إلى أقصى درجات العلو. وهم يرون في العلو تلك الواحدية الثابتة التي تكمن خلف عالم التغير وتعطي في نفس الوقت كلاً من قوة الدفع وحركة الحياة، وهذه الواحدية التي يسمونها

---

(١) أحمد الخشاب، ص٣٥٣.

تاو Tao.

وكانت أفكار هؤلاء التاويين هي التي أوحت في النهاية بالديانة التاوية وذلك جانب من الحياة الدينية الصينية يمكن أن نقول عنه إنه جانب صوفي.

لقد الهمت الكونفوشوسية ديانة الأخلاق والسلوك الاجتماعي، وكانت لها جذور في ديانة القدماء الأرستقراطية. أما التاوية فقد ألهمت ديانة التصوف، وأصولها أقرب إلى الديانة الشعبية عند القدماء[١].

فقد دعا (لاوتسو) الذي ولد في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، إلى حياة بسيطة ومتناسقة حينما يتم التخلي فيها عن دافع الربح، وتنحية الحذق جانباً، والتخلص من الأنانية، وتقليل الرغبات.

وقد ذهب يانج تشو Yang Chua حوالي ٤٤٠ – ٣٦٦ ق. م إلى القول بأنه لا يعطي شعرة واحدة لقاء أرباح العالم بأسره، وقد ذهب إلى أنه مادام الطمع وحب اكتساب المال يشكلان دوافع الأفعال الإنسانية، فليس هناك أمل في تحقيق السلام والرضا، وبناء على هذا فقد دعا إلى المبدأ القائل بأنه لا ينبغي القيام إلا بتلك الأفعال التي تتسق مع الطبيعة [٢].

وتنشد التاوية خلافاً للكونفوشوسية، مبادئها وقواعدها الخاصة بالحياة الإنسانية في الطبيعة لا في الإنسان، ومن هنا فإن هذه الفلسفة تؤكد على الأسس الميتافيزيقية للطبيعة بدلاً من التشديد على المجتمع الإنساني.

وبينما شددت الكونفوشسية على خير البشر الأخلاقي باعتباره مفتاحاً للسعادة، أكد التاويون على تناسق الطبيعة وكمالها. وقوام الموقف التاوي هو أن حيل البشر وأفاعليهم تفضي إلى الشر والتعاسة.

ويرى لاوتسو Lao Tzu أن الحياة المثالية هي الحياة

---

(١) جفري بارندر، ص٣٠٠.

(٢) جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ص٣٣٦.

البسيطة التي يتم فيها تجاهل الربح والتخلي عن الحذق والتقليل من الأنانية إلى حدها الأدنى، وكبح جماح الرغبات، ويمكن تلخيص تعاليم لاوتسو للحفاظ على الحياة الإنسانية ورفع مستواها فيما يلي:

-يتحرك الناس بصفة عامة لتحقيق رغباتهم.

-ينتج عن محاولات الأفراد العديدة لإشباع رغباتهم حدوث التنافس والصراع.

-لإقرار السلام والتناسق بين الأفراد الذين يكافحون لإشباع رغباتهم يتم التوصل إلى معايير للاستقامة والأخلاق الإنسانية.

-من الواضح أن وضع المعايير الأخلاقية لا يحل المشكلات، ذلك أن التنافس والصراع يبقيان على حالهما، والقواعد تنتهك، ويتم إقرار قواعد جديدة لحماية القواعد القديمة، ولكن القواعد القديمة والجديدة تنتهك وتظل الرغبات دونما إشباع بينما يتدعم الشر واقتراف الخطأ.

-بما أن التوصل إلى معايير أخلاقية لا يحل المشكلة، فإن الحل يكمن في التخلي عن هذه المعايير

-لا يمكن التخلي عن الأفعال الصادرة من الرغبات إلا عندما يتبنى الناس (الطريق السهل) للفعل.

-الطريق السهل في الفعل يفترض مقدماً التناغم مع الكون والتصرف وفقاً للنظام الكوني الشامل.

-ينبغي أن يكون تنظيم المجتمع وحكم الناس وفقاً للطريق الطبيعي السهل، كما ينبغي أن يدعم الطريق الطبيعي في نفوس الناس.

-ويشير شوانج تسو Chuang Tzu ٣٦٩ – ٢٨٦ ق. م إلى أن السعادة الحقيقية تعتمد على تجاوز عالم التجربة العادية ومعرفة ذات المرء وتوحيدها مع لا تناهي الكون [١].

وتقوم التاوية Taoism على مبدأين الأول (Tao) ومعناه

---

(١) جون كولر، ص٣٧٨.

القانون السماوي الأعظم، وهو أصل الحياة والنشاط والحركة لجميع الموجودات في السماء والأرض، ولكنه ليس متعالياً على الموجودات، بل هو فيها نفسها. والمبدأ الثاني (Te) ومعناها الاستقبال أي أن الأشياء تستقبل حياتها ونشاطتها وشكلها ولونها بفضل (التاو)، وعلى هذا النحو يمكن فهم التاويه على أنها قريبة الشبه بمذهب وحدة الوجود Pantheism الذي يوحد بين الخالق والمخلوق من جهة، وأيضاً قريبة الشبه من مذهب الحلول الذي يذهب إلى أن الخالق حال في كل الموجودات.

وقد استخدم لاو-تسي الطاو بمعنى المطلق The absolute فهي مادة أساسية تصنع منها كل الأشياء.

ويرى لاو تسو أن (التاو) هو المبدأ الذي يعمل على أساسه كل موجود، والحقيقة أو المعرفة عند التاويين لا يمكن الوصول إليها بالعقل أو المنطق، ولا بالمعرفة التحليلية بل بالكشف الصوفي أو بالاستشراق، فالمعرفة لا تحصل بالعلم والاستدلال وإنما هي إلهام وكشف، فهي معرفة صوفية.

وبينما دعت الكونفوشية إلى العمل والاجتهاد اتخذت الطاوية موقفاً سلبياً فلم تشجع على العمل واقتصرت على التأمل والتجربة الصوفية [1].

وبينما اعترفت الكونفوشية بنظام الطبقات ووجدت في هذا النظام أساساً هاماً للاجتماع، رفضت التاوية الاعتراف بالنظام الطبقي، فالجميع في نظرهم متساوون لأن السماء لا تفرق بين شخص وآخر.

وقد رفض لاو تسي التمايز الاجتماعي ولذلك نصح الحكام بالامتناع عن ألقاب الشرف التي تميز بعض الناس وتلحق أبلغ الأضرار بالمجتمع.

ويرى لاو-تسي أن الحاكم ينكر ذاته في علاقته بالشعب، يقول (على الحاكم أن يتواضع أمام رعاياه، ومن يتصدى لقيادة

---

(١) حربي عباس عطيتو، الفكر الشرقي القديم، ص٢٢٦.

شعب فمكانه آخر الصفوف)[1].

منشيوس ٣٧١-٢٨٩ ق. م

ولد منشيوس بعد وفاة كونفوشيوس بقرن، وقد ولد عام ٣٩٠ ق. م، وتوفي عام ٣٠٥ ق. م. وكان مثل كونفوشيوس سليل طبقة أرستقراطية.

وقد جمع أتباعه أقواله وتعاليمه في كتاب بعنوان (أعمال) وهو يسير على غرار كتاب (المختارات) لكونفوشيوس، فهو يحتوي على أقوال للمعلم على شكل جمل وفقرات وحكايات توضيحية وحكم وأمثال سائرة وما شابه ذلك.

اهتم منشيوس بالعدالة، الاهتمام بالناس العاديين أو الشعب في مقابل الأرستقراطية واهتم بضمان وصول الشعب إلى حقوقه، وهذا هو واجب الأمير، ثم إن السماء هي حارسة الشعب، وهي تبدي استياءها و غضبها عندما يعاني الناس.

ولقد كان لدى منشيوس الشيء الكثير ليقوله عن الاقتصاد، وعنده أن حلقة الاتصال بين الاقتصاد والأخلاق حلقة محكمة: فالذهن الثابت بلا معيشة ثابتة أمر مستحيل، وهكذا يصبح هدف الحكومة هو توفير ضرورات الحياة بكميات كافية).

والرجل المهذب عند منشيوس (هو الذي يكون مهذباً بحق) فلا يكفي أن يكون قادراً على تحقيق الخير، بل يجب أن يكافح لتحقيقها بالفعل. والأمير الذي تتحقق فيه هذه الصفات هو الذي يحقق أهداف الحكم الملكي الصحيح، وهي رفاهية الدولة.

ورأى أن الحكم ينبغي أن يعتمد على المصداقية وليس القوة البدنية أو الإكراه أو القوة، أي الحكم عن طريق فضيلة علياً بدلاً من الحكم عن طريق القوة.

---

(١) حربي عباس عطيتو، مرجع سابق، ص٢٢٦.

مزيد من التفاصيل انظر هـ. ج كريل، الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي تونج، ترجمة عبد الحليم سليم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١.

أما التزامات الطاعة والولاء البنوي فهو يلقي تأييداً خاصاً عند منشيوس، وإذا كانت إحدى الفلسفات المعارضة تذهب إلى (أن الناس ينبغي أن يحبوا بعضهم بعضاً على قدم المساواة، فإن منشيوس يرى تعارضاً بين (الواجب الأسري الخاص) وتدرج العواطف بأولياتها من حيث كبر السن، والتماسك الاجتماعي الذي يكفل ذلك، وبين (حب البشرية بأسرها) وهو الحب الذي رأى أنه يدير التنظيم الاجتماعي للأسرة والدولة [١].

كانت الطبيعة البشرية عند منشيوس خيرة بفطرتها فيشد على صدق خيريتها الفطرية وجود إحساس عام شامل عند الناس بالتقارب وبالصواب والخطأ، ووجود هذا الإحساس يجعل الموجودات البشرية مختلفة عن غيرها من الكائنات الحية الأخرى، بيد أن الطبيعة البشرية يمكن أن تشوه أو تصاب بالضمور والاختفاء ما لم ترب على نحو قويم. وتعتمد تربية الطبيعة البشرية على حماية الذهن، وذلك لأن العقل هو مستقبل العدالة الإنسانية والطبيعية.

والطبيعة والعقل يحددان من نحن وماذا نكون. فقدرنا هو الذي يتحكم في خطنا ويحد فرصنا في الحياة. ولقد كان القدر أو المصير في يد صاحب الإقطاعية، وكان منحة من ابن السماء بوصفه نائباً عن السماء في حكم الإقطاعية. ثم أصبح في الاستخدامات الأوسع هو نصيبنا في الحياة أو المصير الذي رسمته السماء. وإذا كان الناس قادرين على حماية عقولهم وتحديد سلوكهم، فإنهم لا يستطيعون تحديد مصيرهم الذي هو بين يدي السماء. وهكذا اعتقد منشيوس أنه على الرغم من أن جميع البشر بفطرتهم خيرون، فإن حقيقة هذا الخير يرتبط بمعرفة الذات وتهذيب النفس [٢].

يرى منشيوس أن الاستقامة هي قبل كل شيء آخر تحتوي المفتاح المفضي إلى تنمية الخير، فالخير هو أساس الطبيعة الإنسانية. والاستقامة أي صحة الأفعال تخلص العالم من الشرور.

---

(١) جفري بارندر، المعتقدات الدينية، ص٢٩٢.

(٢) جفري بارندر، ص٢٩٢.

ويختلف منشيوس مع كونفوشيوس فيما يتعلق بالطبيعة البشرية والعلاقة بين الخير والصواب، فقد ذهب كونفوشيوس إلى القول بأن الناس لديهم (إمكانية) بالنسبة للخير، أما كنفوشيوس فذهب إلى أنهم يحظون بـ (خير فعلي) كجزء من طبيعتهم. ونظر كونفوشيوس إلى الخير والصواب على أنهما شيء واحد، بينما ميز منشيوس بينهما ولم يذكر منشيوس فحسب أن الناس يحظون بخير فطري، وإنما طرح حججاً لتأييد وجهة النظر.

فالبشر أخلاقيون بالفطرة، وبسبب هذا الخير الفطري، فإنهم يعرفون الصواب والخطأ، ويستشعرون الشفقة والتوقير والتواضع، ويعرفون الشعور بالخجل، وهذا يعني أن بمقدورهم التمييز بين الصواب والخطأ، وتلك ناصية أساس الحكم الأخلاقي والشخصية الأخلاقية [1].

هسون تو: ٣١٢ ــ ٢٣٨ ق. م:

أصبحت الكونفوشية عند (هسون تو) في مثل هذا الجو العقلي الصارم أكثر عقلانية وأكثر مادية، صارت السماء غير مشخصة، وغدت هي الطبيعة، والطبيعة البشرية التي هي أبعد من أن تكون خيرة بالفطرة كما ذهب إلى ذلك متشيوس، كانت في أساسها شريرة في رأي هسون تو.

وربما كانت كونفوشية (هسون تو) أقل من غيرها تعالياً (ترنسندنتالية) وأكثر تركيزاً على الجانب الإنساني، فقد بدأ من مقدمة قاسية تقول إن البشر ولدوا شريرين لكنه في الوقت نفسه يؤكد بقوة عن اعتقاد بأنه في استطاعتهم أن يصبحوا أخياراً بالتربية والتهذيب الأخلاقي، وتستمد التربية والتهذيب الأخلاقي من النصوص الكلاسيكية ومن النظر إلى حكماء الماضي باعتباره قدوة، وهؤلاء الحكماء لا يختلفون عن سائر البشر في طبيعتهم ومواهبهم الأساسية، وإنما هم نماذج لما يمكن للمرء بلوغه بالفهم والبصيرة الأخلاقية، إذ هو استخدم العقل استخداماً سليماً.

ومادام النظام الأخلاقي والكمال البشري يبدآن من العقل، فإن العقل البشري يصبح في نظر (هسون تو) مركزاً للكون، ولقد

---

(١) جون كولر، ص٣٦٨.

قادته هذه الفكرة إلى نظرة إنسانية وعقلانية للدين، فأدان بغير تحفظ بعض الممارسات الدينية واعتبرها من قبل الخرافات، ومن ذلك الصلاة استجلاباً للمطر، وطرد المرضى بالرقى والتعاويذ، وقراءة بخت المرأ من ملامح وجهه. لكنه أباح غير ذلك من أمور كالتنبؤ بالغيب، شريطة أن تقوم التأويلات على ضوء العقل البشري، كما أنكر وجود الأرواح الشريرة والأشباح الضارة وأصحبت أرواح الأسلاف وقوى الطبيعة عند (هسون تو) تجليات للسمو الخلقي وبالفهم الكامل للطبيعة يستطيع الناس في رأيه أن يسيطروا على الكون وعلى بيئتهم [1].

وعارض هسون تو آراء منشيوس وقال إن الطبيعة الإنسانية شريرة أصلاً، ومن خلال المؤسسات الاجتماعية والثقافية يصبح الناس أخياراً، فالبشر يمتلكون فعلاً بدايات الشر في رغبتهم الكامنة في الربح والمتع. ومع ذلك فإنه من الممكن لكل شخص أن يصبح حكيماً، ذلك أن كل شخص يحظى بالعمل ومن خلال إعمال العقل يظهر الخير، فيما يقول هسون تسو. وقد قال منشيوس إن البشر يولدون أخياراً، ويقول هسون تسو إنهم يولدون أشراراً، وقال منشيوس إن المجتمع والثقافة يجلبان الشر، يقول هسون تسو إن المجتمع والثقافة يجلبان الخير، بينما يقول منشيوس إن أي شخص يمكن أن يصبح حكيماً بسبب خيره الأصلي، فإن هسون تسو يقول إن أي شخص يمكن أن يصبح حكيماً بسبب عقله الأصلي وقابليته للتربية.

وقد أوضح هسون تو إنه إذا كان البشر يولدون أخياراً، فإن بمقدورهم أن يصبحوا أخياراً، وهو يذهب إلى القول بأن الخير يجيء كنتيجة للتنظيم الاجتماعي والثقافي وكيف يجلب التنظيم الاجتماعي الخير؟ يجيب هون تسو إن التنظيم الاجتماعي يقتضي قواعد للسلوك وأتباع هذه القواعد من شأنه أن يجلب الخير. ونظريته هي أن الناس يولدون برغبات لا يتم إشباع بعضها عادة. وعندما تظل الرغبات غير مشبعة، فإن الناس يبذلون قصارى جهدهم لإشباعها، وعندما يقوم عدد كبير من الأشخاص ببذل قصارى جهدهم لإشباع رغباتهم المتضاربة دون قواعد أو قيود

---

(١) جفري بارندر، ص٢٩٥.

ينشأ تنافس وصراع يجلبان الفوضى، الأمر الذي يضر بالجميع، ومن هنا فقد قام الملوك الأوائل بوضع قواعد للسلوك تضم الأنشطة المتضمنة، وفي محاولة إشباع الرغبات، وبهذه الطريقة استخدمت القواعد المختلفة المطلوبة للحياة الاجتماعية، وبمقتضى هذه الطريقة في التفكير فإن الخير الأخلاقي قد تم جلبه نتيجة لتنظيم السلوك الإنساني الذي تقتضيه الحياة الاجتماعية [1].

الفكر الاجتماعي في حوض نهر السند ***Indus Valley***

الهند أو شبه القارة الهندية هي موطن الهندوكية Hinduism ثالثة أكبر الديانات التي عرفها العالم، كما تحتل في الوقت نفسه موقع القلب بالنسبة إلى الديانة الرابعة ونعني بها البوذية Buddhism.

ويقسم علماء الأديان الديانات الهندية القديمة إلى ثلاثة أقسام هي: الفيدية Vedism والبارهمية Brahmanism والهندوكية Hinduism ويؤكد العلماء أن أفضل المصادر التي تمكن من الوقوف على ملامح الفكر الاجتماعي والديني في الهند هي نصوص وترانيم الفيدا Vedas التي تعتبر أول كتب الهندوس وأقدسها لدرجة أن وصفها البعض بأنها إنجيل الهند. والفيدا بحكم تعريفها أو معناها الذي يعني المعرفة القدسية التي يفترض أنه يوحى بها إلى نفر متميز من البشر الموهوبين ليقوموا بنقلها إلى الأفراد العاديين.

وتتكون الفيدا من أربعة كتب أساسية:

١. الرجفيدا Rig – Veda والتي تعني أغنية المعرفة.

٢. ياجور فيدا Yajur Veda أو معرفة الطقوس.

٣. ساونا فيدا Sawna Veda الأناشيد الخاصة التي يلقيها الكهنة في الاحتفالات المقدسة.

٤. آثارفا فيدا Atharva Veda يحتوي على الأدعية والطقوس التي تقام داخل البيوت.

---

(١) جون كولر، ص٣٧٠، ٣٧١.

والرجفيدا تشرح دقائق الشعائر والقرابين البراهمية، وتشمل أناشيد وترانيم مرفوعة إلى إله المطر أندرا Andra الذي يعتبر أعظم[1].

وفي الرجفيدا يتصور مجتمع الآلهة على أنهم أسرة واحدة، فهم جميعاً أطفال الدايوس Dyaus فهو إله السماء الذي أصبح رباً للأرباب. ويعتبر دايوس هو الخالق للكون، وقد كون اتحاداً مع باراتيفي Prathive الأرضي فأنجبا أندرا Indra إله العواصف والمطر الذي يحطم بقوته الخارقة وبسيطرته على الرعد والبرق أعداء الآريين.

ثم هناك أيضاً آلهة السماء مارونا التي تبث روح النظام، وأجني Agni النار أو إله النار بكافة صورها.

أما الكتاب الثاني ياجورفيدا فهو عبارة عن مجموعة من الأناشيد والأغنيات التي يتعين إنشاءها والتغني بها عند تقديم القرابين والأضحيات للآلهة.

ويتضمن الكتاب الثالث الذي يعرف باسم ساونا فيدا Sawna Veda تلك الأناشيد الخاصة التي يلقيها الكهنة في الاحتفالات المقدسة. وهي أناشيد على قدر من السرية، ولذا فهي لا تخرج عن طائفة الكهنة وتلقن ترانيما للتلاميذ الذين يعدون للانخراط في الطبقة المغلقة.

أما الكتاب الرابع آثارفا فيدا Atharva Veda وهو يحتوي على الأدعية والطقوس التي يقيمها ويؤديها الأفراد في داخل بيوتهم أثناء صلواتهم وتقربهم إلى الآلهة، وكذا أدعيتهم والتي يستهدفون بها إبعاد الشياطين أو الأرواح الشريرة التي تؤتمر بأوامر سيفا Siva أوتشيفا Shiva الذي يرمز إلى الموت والمعارك والقوة المدمرة ويرتبط على أية حال بإله الشمس فيشنو Vishnu حيث يتصل اتصالاً مباشراً ببراهما Brahma.

ومن الواضح أن دور الدين كان متعاظماً في المجتمع

---

(١) محمود أبو زيد، ص١٦٨.

مزيد من التفاصيل انظر:

Schweitzer, A; Indian Thought and Development, New York: Henry Holt and Company, 1949.

الهندوسي، ويظهر في حقيقة أن هذه التصورات العقيدية والأفكار المرتبطة بالآلهة التي تعتبر في مجملها من أبعاد الديانة البراهيمية إنما تتصل اتصالاً مباشراً بقانون مانو Manu وهو القانون المدني (الوضعي) الذي ينظم حياة الأفراد والجماعات على أساس نظام الطوائف والطبقات الاجتماعية الذي وإن كانت العوامل الاقتصادية والقرابية تقوم بدور كبير إلا أنه يقوم أصلاً على أساس ديني هو بلا شك الذي يعطي نظام الطوائف ما نراه فيها من طابع الصرامة والجمود، فالإله براهما نفسه هو مصدر كل هذه القوانين وقد سعت جماعة من أئمة البراهمة إلى وضع مجموعة من التشريعات الوضعية للحفاظ على الأوضاع الاجتماعية التي كانت سائدة في صورة تحوطها القداسة والتبجيل [1].

النظام الطبقي في الهند:

ميز الآريين أنفسهم في أربع طوائف رئيسية هي:

-رجال الدين الذين يحتلون قمة الهرم ويصيرون بذلك أكثر أفراد المجتمع امتيازاً، حيث لهم وحدهم حق السلطة، وعلى الآخرين واجب التقديس والاحترام.

-طبقة الحكام والجند وهؤلاء أقل من سابقيهم في المنزلة الاجتماعية.

-المزارعين والجند تأتي بعد الطبقتين المتميزتين إلى ابعد الحدود طبقة المزارعين والجند، وهاتان تمثلان في الحقيقة عصب الحياة الاقتصادية في المجتمع الهندي حيث يعمل أفرادها في التجارة والصناعة وفلاحة الأرض وتربية الماشية.

-المنبوذون: وهم الأفراد الذين يحرمون من ممارسة أي حق من الحقوق المدنية والسياسية.

ولا شك أن نظام الطوائف في الهند إنما يعكس في آخر الأمر جوهر الفلسفة الهندية ذاتها التي تؤمن بالقدر والمصير باعتبار أن الآلهة أدرى بما هو في صالح البشر، ولهذا وضعت كل

---

(١) محمود أبو زيد، ص ١٦٨.

إنسان في المكان الصحيح الذي يتعين عليه الرضا تحقيقاً لانسجام المجتمع[١].

وتعتبر الحياة في الهند القديمة ربيبة البراهمية، بمعنى أن الاعتقاد الذي ساد في تلك الحقبة الموغلة في القدم هو أن مصدر هذه القوانين المنظومة في قصائد وأشعار كان الإله براهما نفسه، وإن كان من المحقق أن هذه المجموعة التشريعية الوضعية كانت من صنع جماعة من أئمة البراهمة حاولوا الحفاظ على الأوضاع الاجتماعية التي كانت سائدة في صورة جامدة مقدسة، وكان أهم ما يميز البناء الاجتماعي في المجتمع الهندي القديم ارتكازه على النظام الطائفي المغلق، وهذا النظام يدعمه الدين البراهمي، فقد شاءت الإرادة البراهمية أن يوضع سلم طبقي للناس، في قمة الهرم يتربع رجال الدين من البراهمة وهم أكثر أفراد المجتمع امتيازاً ولهم وحدهم حق السلطة وواجب التقديس والاحترام. وهم يعتمدون على من يليهم في المنزلة الاجتماعية من طبقة الجند المعروفة باسم الكشائرين، وهؤلاء وأولئك يعيشون على ما تنتجه الطبقة الأدنى من التجارة والصناعة وفلاحة الأرض وتربية الماشية، ويأتي في الدرك الأسفل من السلم الطبقي طائفة المنبوذين المعروفين باسم السودرا وهم الأفراد المحرومون من ممارسة أي حق من الحقوق المدنية أو السياسية[٢].

وبالرغم من صرامة هذا التسلسل الطبقي نجد أن المنزلة الاجتماعية لكل طائفة قد تطورت تبعاً للظروف السياسية، فنجد مثلاً أن الزعامة كانت لطبقة الكشائرين المحاربة، أثناء اشتعال الحروب الوطنية التي نشأت بين السكان الأصليين والنازحين المهاجرين، ومن المحتمل أن يكون خوف الأجناس النازحة إلى الهند على خصائصهم السلالية وثقافتهم الراقية، كان من أهم الحوافز لهم على وضع نظم المحرمات المقدسة Tabao التي تحرم

---

(١) محمود أبو زيد، ص١٧٠.

مزيد من التفاصيل انظر سرنيالي راد كراشنا وشاراز مور، الفكر الفلسفي الهندي، ترجمة ندر، اليازجي، دار اليقظة العربية، ١٩٦٧.

(٢) أحمد الخشاب، مرجع سابق، ص٣٤٣.

عليهم التزاوج أو الاختلاط بغيرهم من السلالات الأخرى وخاصة من القبائل الوطنية التي كانت تسكن الهند. وبهذا استطاعت الطبقات البراهمية الدينية والغازية صاحبة السيادة والسلطة في عزلة أرستقراطية عن بقية قطاعات البنية الاجتماعية الأمر الذي أظهر النظام الطائفي على أنه أداة تعويق للتطور الاجتماعي، ووسيلة جمود في المجال الحضاري [1].

الهندوسية:

الهندوسية هي اتباع أو عبادة الإله فيشنو Vishnu أو شيفا Shiva أو الآلهة شاكتي Shakti أو تجسيداتهم أو مظاهرهم أو ازواجهم أو ذريتهم. وهكذا يندرج ضمن الهندوسيين عدد كبير من اتباع عبادة راما وكرشنا Rama & Krishna (وهما تجسيدان لفشنو) واتباع عبادة درجا Darga وسكاندا Skanda وجانيشا Ganesha وهم على الترتيب زوجة شيفا وابناه.

إشعال النار المقدسة: يوجد في البيت الأري نار مقدسة تشتعل منذ بداية إنشائه، أعني خلال حفل الزواج وهي ليست ناراً عادية، ينبغي ألا تستخدم في إعداد الطعام أو الأغراض المنزلية الأخرى، وكذلك ينبغي إشعالها بأنواع خاصة من الخشب، وبطريقة معينة هي حك العصى ببعضها، وينبغي ألا تترك حتى تخمد. ولابد أنه يتقدم رب الأسرة لهذه النار يومياً بقرابين للآلهة بل إنه في الواقع ملزم بالقيام ثلاث مرات في اليوم.

عبادة البراهمان Brahman روح العالم وقوامها تعاليم الفيدا أو تلاوتها، وعبادة آباء بتقديم الطعام والماء لتغذيتهم، وعبادة الآلهة بإحراق القرابين، وعبادة بهوتاس Bhutas (وهي الموجودات الحية أو الأرواح) بنشر الحبوب في الجهات الأربع والمركز وفي الهواء، وعلى أواني المنزل، ووضع الطعام على

---

(١) أحمد الخشاب، مرجع سابق، ص٣٤٣.

عتبة الدار للمنبوذين والحيوانات والطيور والحشرات.

وأهم الواجبات التي يلتزم بها رب الأسرة فهي واجبات نحو الآباء أو الأسلاف، فهو ليس ملزماً فقط بأن يقدم القرابين من الماء أوالطعام يومياً إليهم، وإلى روح البيت التي تسكن الركن الشمالي الشرقي من المنزل، بل إن عليه أيضاً أن يقدم لهم البندا Pinda أي كره الأرز Rice – Ball في يوم ظهور القمر الجديد من كل شهر.

وتسمى العناصر الرئيسية في هذا الاحتفال شراذا Shradha ويجلس فقهاء البراهمة في مكان مكشوف. ويفتتح رب الأسرة الاحتفال وينهيه بحرق قرابين للآلهة في النار المقدسة. لكن الحدث الرئيسي هو التقرب للآباء، فهو يصنع ثلاث كرات أرز وتذهب هذه إلى الموتى الثلاثة من أسلافه الأب، الجد، وأب الجد.

وهذه النظرية الخاصة بالشراذا Shradha هي أن يقدم الأحياء الطعام إلى الأسلاف الذين يقطنون (عالم الآباء) ويضفي الأسلاف النعم على أحفادهم الأحياء بمنحهم إياهم النجاح والازدهار والذرية [1].

وهكذا تكون (شراذا) هذه هي همزة الوصل بين الأحياء والأموات، وهي التعبير عن التعاون المتبادل بينهم. غير أن هذه العلاقة يمكن أن تنقلب رأساً على عقب إذا لم تؤد الطقوس الجنائزية المناسبة للميت، فما لم يستقر أرواح الموتى في عالم الآباء تظل عرضة لأن تصب البلاء على رؤوس نسلها الذين لم يقوموا بإطعامها عن طريق القرابين، أو ضمان انتقالها إلى عالمها المناسب.

قوانين الزواج: ليس الزواج ضرورة مقتصرة على عبادة الأسلاف، بحيث ينبغي على الرجل أن يتزوج لينجب ابناً يواصل

---

(١) جفري بارندر، ص١٤٠، ١٤١.

مزيد من التفاصيل انظر فؤاد محمد شبل، البوذية، دار المعارف، مصر، ١٩٧٧.

العبادة، ويقدم البندا (أقراص الأرز) لكي تستريح روح ابنه، وإنما الزواج ضرورة مطلوبة لذاتها أيضاً، فليس ثمة ما يبرر الاعتقاد بأن الرجل المتزوج هو وحدة القادر على تقديم قرابين الطعام للأسلاف، وعندما يصبح أرملاً فإنه يتخلى لابنه عن رئاسة الأسرة، وعن القيام بدور الكاهن المسئول عن نارها المقدسة ويقرر التقاعد.

فالزواج في النظام الهندي إجباري للجميع، والرجل الأعزب طريد الطبقات ليس له في المجتمع مكانة ولا اعتبار، وكذلك الفتاة إن طال بها الأمد وظلت عذراء بغير زواج على أن الزواج لم يكن يترك لأهواء الفرد يختار من يشاء، فهو لا يستطيع أن يتزوج كيفما اتفق، لأن الزوجة الكفء المساوية في المولد والمنحدرة من أسرة أرية أتمت عملية الترسيم وغيرها من الطقوس، هي وحدها القادرة على ممارسة الطقوس المنزلية دون أن تدنسها، وهي وحدها القادرة على إنجاب الابن الطاهر النقي المؤهل لمواصلة عبادة الأسلاف بعد والده.

قانون الأسرة الهندوسية: رب الأسرة هو كاهن دينها وهذا المنصب وراثي-عبادة الأسلاف فيها-وهذه الخاصية تؤول إلى أولئك الأكفاء القادرين على تقديم القرابين إليه بعد الموت وإلى أسلافه، أي إلى أبنائه المتزوجين قبل غيرهم. وفي حالة نقص النسل في نوع الذكور يؤول الإرث إلى أولئك الذين قدموا (البندا) إلى واحداً أو أكثر من الأسلاف، ذلك لأن الإرث يحمل معه الالتزام بتقديم البندا.

ولهذا السبب فإن البنت لا يمكن أن ترث مادام الذكور وحدهم قادرين على تقديم القرابين [1].

الأهداف الإنسانية: يتعين على المرء لكي يتم تنظيم حياة الفرد ومؤسسات المجتمع، أن يكون في المقام الأول واضحاً فيما يتعلق بالأغراض الأساسية للحياة. وقد تم إنجاز ذلك في الهند، من خلال بحث الأهداف الرئيسية في الحياة، التي من شأنها أن تسهم

---

(١) جفري بارندر، ص١٤٦.

في كل من رخاء المجتمع أو تحقق سعادة الفرد.

ولكل إنسان أربعة أهداف أساسية في الحياة (العيش الفاضل، وسائل الحياة، المتعة، تحرير النفس) وهذه الأهداف يكافح للوصول إليها، لأن الإنسان مركب من وجود عضوي وروحي، فإن من الضروري إشباع الحاجات العضوية والروحية.

اليوجا: الطريق إلى ضبط النفس: أساليب ضبط النفس

المعروفة باسم اليوجا Yoga وهي ممارسة مطلوبة لتحقيق الحكمة التي من خلالها يمكن القضاء على الجهل الذي يتسبب في الخلط بين الروح والمادة، ويمكن إدراك الطبيعة الجوهرية للذات باعتبارها (الروح).

وتبدأ اليوجا بمجموعة من الأوامر الأخلاقية يقصد بها إعادة توجيه إرادة الشخص وأعماله، فبدلاً من التصرف انطلاقاً من قوى الأنا العمياء، فإن الشخص يتصرف انطلاقاً من التعاطف حيال رضاء الآخرين.

ويستبعد كافة التصرفات التي تؤذي الكائنات الأخرى، وكل الأعمال التي تقوم على أساس الكراهية وسوء النية. والتخلص من النوازع الأنانية للأنا.

وكذلك يتعين تجنب الكلمات التي تؤذي الآخرين والحديث الأجوف والثرثرة الخرقاء، كما يستبعد ما هو ملك الآخر أي لا ترغب فيما يملكه شخص آخر، بل ينبغي القضاء على الرغبة بأسرها في امتلاك الخيرات، حتى ما يدعى بـ (الملكية المشروعة) ويقضي هذا المبدأ بأنه بينما يجوز استخدام كل ما هو ضروري للحياة من قبل أي شخص يحتاجه، فإن مبدأ الملكية نفسه هو تعبير عن الطمع.

كما أن من يمارس اليوجا ينبغي أن يلتزم العفة ولا يمارس النشاط الجنسي، لأن ممارسة الجنس يمثل لوناً من القيد والعبودية.

فممارسة اليوجا تقضي على الدوافع التي تؤدي إلى النشاط المحرم وتقوم بإحلال الحب المفعم بالتعاطف محل الرغبة

والكراهية كمنبع أساسي للفعل، فإن من يمارس اليوجا يخطو خطوة أولى رائقة نحو التحرر.

وكذلك فإن ممارسة اليوجا تدفع المرء لأن يكون أكثر روحانية والنقاء الداخلي، فمن يمارس اليوجا يقضي على كل الآثار المترتبة على الأفكار والأفعال السابقة. وكذلك تؤدي ممارسة اليوجا إلى الرضا والقناعة والزهد والتقشف وكبح جماح الشهوات ونكران الذات [١].

وقد ساد التفكير الهندوسي نزعتان فيما يتعلق بالألوهية، وهما نزعة التعدد أي تعدد الآلهة في المرحلة الأولى حيث عبدوا مظاهر الطبيعة من جبال وأنهار وحيوانات ونار، واعتقدوا أن لهذه المظاهر الطبيعية أرواحاً فجعلوا لكل مظهر من مظاهرها إلهاً يعبدونه، نزعة أخرى مقابلة للنزعة الأولى وهي نزعة الوحدانية، وتلك كانت في المرحلة الثانية من حياتهم، فقد تخلوا عن عبادة الآلهة المتعددة ليعبدوا إلهاً واحداً. أي أنهم جمعوا الآلهة المتعددة في إله واحد ورأوا فيه خالق للعالم وحافظ له ثم يهلكه ويرده إليه في نهاية المطاف، وأطلقوا عليه ثلاثة أسماء فهو (براهما) من حيث هو خالق أو موجود، وهو (فشنو) من حيث هو حافظ، وأخيراً هو (سيفا) من حيث هو مهلك.

فكأن الهندوس قد آمنوا بثالوث مقدس مؤلف من:

براهما: سيد جميع الآلهة وهو القوة الخالقة في الطبيعة.

فشنو: إله الحب ويعاون المصابين ويذود عن الفقراء ويبعث الموتى من القبور.

وسيفا أو شيو: فهو إله الإرادة ولا تظهر عادة إلا في ميادين القتال والمنازعات، فهو يمثل الدمار ويضع نهاية لكل شيء [٢].

---

(١) جون كولر، ص١٠٢.

(٢) حربي عباس عطيتو، الفكر الشرقي القديم، ص١٣٢.

== مزيد من التفاصيل انظر محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٠.

الكرما: Karma كلمة سنسكريتية معناها الحرفي (الفعل) وهو من أهم العقائد في الديانة الهندوسية، قانون الجزاء المسيطر على حياة سائر الأحياء، في الكون، ليس لأحد أن يتخلص منه، فالحياة بمثابة حلقة في سلسلة حياة يحياها المرء يحددها فعله في الحياة السابقة.

وهذا القانون هو المسئول عن الثواب والعقاب وإليه يرجع اختيار الصورة التي تتناسخ فيها الأرواح على أساس ارتباط المعلول بالعلة فتناسق الروح تلقائياً داخل إطاره للتلبس بالجسد الجديد الذي تتوافق ملابسات حياته مع الميول الذاتية لهذه الروح ومع أعمالها في دورة حياة سابقة.

تناسخ الأرواح: *Transmigration*

يرجع اعتقادهم في التناسخ إلى سببين: أولهما أن الروح عندما تفارق الجسد لا تزال على صلة بالعالم المادي بما فيه من شهوات وملذات لم تتحقق بعد، وثانيهما أن النفس خرجت من الجسم وعليها ديون كثيرة لابد من أدائها وأن تتذوق ثمار أعمالها التي قامت بها في حياتها السابقة.

فالأرواح لا تموت ولا تفنى أبدية الوجود، لا سيف يقطعها ولا نار تحرقها ولا ماء يغرقها ولكنها تنتقل من بدن إلى بدن كما يستقبل البدن اللباس إذا بلي وتترمى النفس في الأبدان المختلفة كما يترقى الإنسان من طفولته إلى شباب إلى كهولة إلى شيخوخة، وذلك أن النفس طالبة للكمال مشتاقة إلى العلم بكل شيء، وهذا يحتاج إلى زمن فسيح، ولما كان عمر الإنسان قصيراً كان لابد أن تنتقل النفس من بدن إلى بدن، وفي كل بدن تستفيد تجارب

ومعلومات جديدة [1].

فالأرواح الباقية تتردد بين الأبدان البالية من الأذل إلى الأفضل دون عكسة تترقي النفس في الكمال حتى يتحقق شوقها إلى علم ما لم تعلم، وتستوفي بذلك شرف ذاتها.

وحدة الوجود:

ساد مذهب وحدة الوجود في العقيدة الهندوسية، فهم يوحدون الله والعالم ويزعمون أن كل شيء هو الله، ويردون كل شيء إلى الله ويعتقدون أن براهمان هو الحقيقة الكلية وأن جميع الأشياء الأخرى ليست سوى أعراض ومظاهر لهذه الحياة الحقيقية.

فالحياة كلها مظاهر لتلك القوة الوحيدة الأصيلة (براهما) فالجبال والبحار والأنهار تنفجر من تلك الروح المحيطة المستقرة في الأشياء وليست الروح الإنسانية إلا جزءاً من الروح الإلهية (براهمان)[2].

الجينية ***Jainism***

من المذاهب الدينية في الهند، واسم الجينية مستمد من كلمة Jina ومعناها القاهر أو المنتصر أو البطل في اللغة السنكريتية، وهو وصف أطلقوه على معلميهم الكبار الذين يسمون (تيرثانكارا) Tirthankara الذين رسموا الطريق إلى الخلاص من التناسخ.

ويعتبر مهافيرا Mahavira مؤسس المذهب الجيني، وعاش مهافيرا حياة الزهد والتنسك وأعلن عن رغبته الشديدة في التخلي عن الملك والألقاب ومتاع الدنيا والدخول في حياة الرهبنة.

---

(١) حربي عباس عطيتو، مرجع سابق، ص١٣٦.

(٢) حربي عباس عطيتو، ص١٣٨.

مزيد من التفاصيل انظر: جوستاف لوبون، حضارات الهند، ترجمة عادل زعتر، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٤٨.

الألوهية: أنكر مهافيرا وجود إله ذلك أن الاعتراف بوجود

آلهة قد يخلق طبقة براهمة أو كهنة تمارس استبداداً على الناس وقرر أنه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون. ولقد ترتب على عدم اعتراف مهافيرا وأتباعه بالإله والآلهة سلبيات كثيرة متعلقة بالعقائد منها عدم قولهم بالصلاة وامتناعهم عن تقديم القرابين.

والكرما تعني عندهم كائن مادي كثيف ينزلق إلى الجسم ويخالط الروح المنيرة بطبيعتها، ويحجب نورها بكثافة، ولا سبيل لتحرير الروح إلا شدة التقشف والحرمان من الملذات، ولكي تتخلص الروح من الكارما يظل الإنسان يولد ويموت حتى تطهر نفسه وتنتهي رغباته ومعها حياته المادية، فيبقى روحاً خالداً في نعيم خالد، وهذا الخلود في النعيم يسمى عندهم النجاة، وهو ما يعادل الانطلاق في الهندوسية والنرفانا في البوذية.

وخلاص النفس وتحريرها من ربقة الجسد، إنما يكون بالزهد والتجرد من الدنيا حتى العري، فالنجاة خلاصة من الجسد، ولذلك كان الانتماء غاية أو جائزة لا يحصل عليها إلا الخاصة، ومن شروط النجاة أو سبيل الوصول إليها وقتها أنه يتحتم على الناسك ألا يوقع أذى بإنسان أو حيوان، فالحياة بكافة أشكالها مقدسة مصونة ولا يجوز الاعتداء عليها، وعلى ذلك يحرم قتل الحيوان، وبالتالي أكل اللحوم.

ومن شروط النجاة قهر جميع العواطف والمشاعر والحاجات لكي لا يحس الراهب بحب أو كره ولا بسرور أو حزن ولا بحر أو برد ولا بخوف أو بحياء ولا بجوع ولا عطش ولا بخير أو شر، ومن أجل طهارة الروح، فضرورة تمسك المريد بالخلق الحميد والإقلاع عن الخلق السيء وتجنب الأذى والضرر لأي كائن حي والتحلي بالفضائل التالية (العفو-الصدق-الاستقامة-التواضع-النظافة -ضبط النفس-التقشف الظاهري والباطني-الزهد-اعتزال النساء-الإيثار-السيطرة على متاعب الحياة وهمومها-القناعة الكاملة-الطمأنينة-الطهارة الظاهرية والباطنية). وكذلك تجنب الكذب-

السرقة-الخيانة-الجشع-العنف .. إلخ [1].

البوذية:

ظل التفكير الاجتماعي الذي ارتبط بالهندوكية مسيطراً في الهند إلى أن بدأت في الظهور تعاليم البوذية التي تنسب إلى جواتاما بوذا مؤسسها في القرن الخامس قبل الميلاد. وبوذا ينتمي إلى عائلة نبيلة هي عائلة جواتما Gautama وأطلق عليه منذ مولده في نيبال حوالي ٥٦٥ ق. م اسم سيداهارتا Siddahartha وإن كان قد اشتهر مع ذلك بنسبته إلى العائلة التي عاش في كنفها حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره عيشة مليئة بالرفاهية. ولكن فجأة ترك زوجته وابنه وعائلته كلها ليبدأ حياة العزلة والتقشف ليستغرق في النهاية في التأمل تحت شجرة الحقيقة Bo – Tree حيث تكشفت له أصول الدين البوذي ومعالمه، وبزغت في نفسه النيرفانا Nervana التي أدرك في ضوئها أن العالم بكل ما فيه إنما ينتهي مآله للعدم.

ويتمثل الاعتقاد الأساسي في البوذية في أن الذات الإنسانية وشهواتها وملذاتها هي السبب فيما يعيشه البشر من شقاء وألم، فقد انتهى إلى أن الخلاص من كل هذا إنما يتوقف على القدرة على نبذ هذه الذات وملذاتها، وذلك هو السبيل الوحيد للتحرر من الألم المتمثل في سجن تطلعات النفس المادية.

وقد دعت البوذية إلى القضاء على مظاهر المغالاة والتطرف في التفرقة بين الطوائف المختلفة من حيث الحقوق والواجبات والمسئوليات والالتزامات. وفي هذا الصدد نجد له موقفاً محدداً من البراهمية التي وضعت للناس أقدارهم المحتومة، ثم حثت على التقرب للآلهة وطلب المساعدة منها مؤكداً بذلك نظرة جديدة إلى العالم، حيث رأى أنه أزلي أبدي والأفراد والأشياء تولد وتعيش وتفنى لكي تولد من جديد في سلسلة متصلة لا أول لها ولا

---

(١) حربي عباس عطيتو، الفكر الشرقي، ص١٤٦.

مزيد من التفاصيل انظر: علي زعبو، الفلسفات الهندية، دار الأندلس، بيروت،ط٢، ١٩٨٣.

نهاية، وبذا تبدو الحوادث وكأنها سلسلة من العلل والنتائج التي تتبادل الفعل والتأثير. وهي نظرة تختلف مع ما ذهبت إليه البراهمية التي أكدت على أن الإنسان إنما يفعل الخير خوفاً من أن يستحيل بعد الموت إلى حيوان[1].

ثمة أساس أخلاقي في البوذية لم تلتفت إليه البراهمية يقوم على إدراك الإنسان لحقيقة الدهارما Dharma التي تعني الوسطية في تناول الأمور حتى بين المادية والانغماس في إشباع الغرائز والزهد والتقشف. أو هي بمثابة مبدأ نظري يتجسد في مجموعة من التعاليم التي تقدم للإنسان وسائل الاكتساب عن طريق التعلم والامتثال للقواعد التي تسير بموجبها الحياة الصحيحة.

وقد وضع الإله ياما Yami نظام العالم أو الكرما Karma ليؤكد أن كل إنسان لابد أن يلقى ما يتكافأ مع ما قدمت يداه إن خيراً أو شراً.

ومع أن هناك من يرى أن مثل هذه الفلسفة التي تنطوي عليها الكرما إنما تعكس ملامح نفعية بحتة، وذلك على اعتبار أن الإنسان لاشك سوف يحسب أفعاله في ضوء ما سيعود عليه وعلى الآخرين من خير ومنفعة إلا أن مثل هذه النظرة لا تخلو من مغالاة حيث لا تضع اعتباراً كثيراً لطبيعة الإنسان الاجتماعية.

ولعل الشيء الواضح هو أن البوذية لها موقف خاص من فكرة الآلهة ذاتها، حيث لا نلمح فيها ذلك التقديس والخضوع التام لها، وإنما في الوقت الذي لم تتجاهلها فيه تماماً، فقد أفسحت للإنسان مجالات الفعل والاختيار.

وقد يكون صحيحاً أنها انتهجت في ذلك طرقاً تدور حول مجاهدة النفس وتعتمد على أساليب التقشف والزهد والتأمل، ولكنها وضعت قواعد سلوكية عملية يجب أن يلتزم بها الأفراد لكي يحيوا حياة فاضلة.

فالبوذية ولو أنها سعت إلى ابتعاد الناس عن شئون الحياة الدنيوية، إلا أنها أعلنت في الوقت نفسه مبادئ الإنسانية التي تدعو

---

(١) محمود أبو زيد، ص١١٣.

إلى نبذ الطبقية والقضاء على المزايا الوراثية وهو ما تنطوي عليه الكرما التي تذهب إلى أن الناس قد وجدوا في الأصل متساويين، وقد عملت البوذية على خلاص المجتمع من براثن النظام الطائفي الطبقي عن طريق هذه العقيدة البراهمية التي تزعم أن البراهمي من طبيعة مقدسة وأن المنبوذين يعيشون على هامش الحياة محرومين من كل الحقوق من طبقة دنسة، لذا حرمت عليهم حتى ممارسة الشعائر الدينية، كذلك أوضحت البوذية أن صفات اللاهوتية والقدسية ليست أبداً صفات وراثية أو فطرية تختص بها السلالة البراهمية وإنما في استطاعة الإنسان أياً كانت الطائفة أو الطبقة التي ينتمي إليها أن يكتسب مثل هذه الصفات عن طريق ما يكتسبه من فضائل سلوكية وعملية في مقدمتها الوسطية والاستقامة والتأمل والحكمة[1].

تعاليم بوذا في جملتها تمثل ثورة جذرية على الأسس الاجتماعية التي ارتكزت عليها الديانة البراهمية، تلك الديانة التي أقامت في المجتمع الهندي القديم نظاماً عبودياً ليس له مثيل، وكان أول الآراء التي دعت إليها البوذية هو القضاء على مظاهر المغالاة في التفرقة بين الطوائف من حيث الحقوق والالتزامات، وانتهجت في سبيل ذلك أساليب حول تلك المجاهدات الصوفية والأساليب التقشفية، ومحاولة خلاص الفرد من نزواته وشهواته الملحة، وليس معنى ذلك أن البوذية تعني بالتأملات العقلية والتصورات الميتافيزيقية إنما إذا نظرنا إليها من وجهة نظر تحليلية ألفينا أنها مجموعة من القواعد السلوكية العملية التي يجب علىالفرد التزامها لكي يحيا حياة فاضلة خلواً من الآلام والآثام، والسبيل إلى ذلك هو أن يسلك الفرد سلوك العدل والإخاء بعد التحرر من الشهوات ومن هنا امتزجت البوذية بالآراء الصوفية.

ومن ناحية أخرى، فإن البوذية وإن كانت قد أبعدت الناس عن التفكير في شئون الحياة الدنيوية والحقوق والوجبات الاجتماعية، إلا أنها أعلنت في نفس الوقت مبادئ الإنسانية التي تدعو إلى نبذ الطبقية وتقضي على المزايا الوراثية، فهناك قانون

---

(١) محمود أبو زيد، ص١٧٥.

أبدي أطلق عليه مصطلح الكرما Karma ووفق هذا القانون، وجد الناس متساويين في الخلقة والحقوق بقدر مساواتهم في حظوظهم من الآلام، إن الوجود مرتبط بالألم والرغبة في الحصول على أي شيء تنطوي على عنصر الألم لهذه الرغبة، ومن ثم كان القصد في الرغبات والشهوات وسيلة فذة للتقليل من شقاء الحياة وهمومها، وتنتهي هذه الفلسفة السلوكية إلى شبه إنكار للشخصية الإبداعية الإيجابية، وإلى إعلاء لنظرية التوسط والاعتدال في أمور الحياة، ومن هنا جاء التفكير الاجتماعي البوذي ذا طابع أخلاقي سلوكي يعمل على خلاص المجتمع الهندي من براثن النظام الطائفي عن طريق هدم العقيدة البراهمية التي كانت تزعم أن البراهمي من طبيعة مقدسة، وأن السودرا من طبيعة مدنسة يحرمه من ممارسة الحياة الدينية، وأثبتت بالتفسيرات العقلية لأسفار الفيدا Vidas التي يقدسها البراهمية والقوانين المانوية التي تنظم حياتهم الاجتماعية، إن اللاهوتية والقدسية ليست صفة ولادية أو فطرية للسلالة البراهمية، وإن كل الطبقات تتساوى في طبيعتها الحيوية والاجتماعية وإنه في استطاعة أي إنسان أيا كانت الطائفة التي ينتمي إليها أن يكتسب هذه الصفة عن طريق فضائل سلوكية عملية هي الاستقامة والتأمل والحكمة[1].

والجوهر الأساسي لمذهب (بوذا) هو فكرة الألم، فالوجود الإنساني بعيد عن الكمال، وحتى أسعد الناس وأوفرهم حظاً يتعين عليه التسليم بقدر من البؤس أو التعاسة. ولا شك أن هذه الفكرة قد ترسخت لديه منذ الصغر، فقد أحس بما يشوب من نكد وكد وتعب وشعر بما يصاب به الإنسان من مصائب تبليه بالشيخوخة والمرض والموت، ومن ثم أهدته خبرته إلى أن الحياة أساسها الألم ولا تبعث إلا على الحزن، ولا يمكن للإنسان الخلاص منها ما لم يبحث عن علة هذا الألم وأسبابه الحقيقية.

يقول: (أيها الرهبان أو النساك هذه هي الحقيقة المقدسة عن الألم: المولد ألم، والهرم (الشيخوخة) ألم والموت ألم، والاجتماع بغير المألوف ألم، وعدم الحصول على ما يهوى ألم).

لقد بحث بوذا عن علة الألم وأسبابه الحقيقية في الوجود

---

(١) أحمد الخشاب، ص٣٤٥.

أو العالم فوجدها ترجع إلى كل من الشهوة والجهل. أما الشهوة وخصوصاً شهوة الحياة التي تسبب الولادة بعد كل موت، فالجهل يدفع الإنسان إلى حب الحياة والتعلق بمفاتنها وتمعن الشهوة في طلب المزيد من اللذة والشهوة، وعلى من يعرف أن الجهل هو سبب شقائه وعلة عودته إلى الحياة فيجب عليه أن يبحث عن المعرفة الحقة التي تمحو جهله ليخلص من الآلام.

يقول: (أيها الرهبان، هذه هي الحقيقة المقدسة عن مصدر الألم الظمأ، الشهوة، الهوى، الرغبة في التلذذ، فالهوى والشهوة يجران من مولد إلى مولد، ومن ألم إلى ألم).

وسبب الألم هو ميل الإنسان إلى الشر وإلى الملذات الحسية[1].

ويقوم الطريق النبيل على حقائق مقدسة:

- العقيدة الصادقة (سلامة الرأي) - النية الصادقة (سلامة النية)
- القول الطيب (سلامة القول) - الفعل الحسن (سلامة الفعل)
- العيش السوي (سلامة العيش) - الجهد القيم (سلامة الجهد)
- الوعي السليم (سلامة الوعي) - التأمل الصالح (سلامة التركيز)

والإيمان بهذه العقيدة لا يكفي طالما كان سلوك الفرد غير فاضل، ولذلك يجب أن يكون صافي النية، لا يكن للغير أي شراً وحقداً وحسد، يحب خير للجميع ويعمل لخير الغير والآخرين على الدوام، وذلك لا يتحقق ما لم يتجنب الكذب والنفاق والرياء والنميمة والغيبة، يتوخى الصدق في القول ويبعد عن لغو الحديث، فلا يسب أحداً سباً يشين سمعته ويخدش كرامته، كما يجب أن يكون سلوكه فاضلاً لا يأتي بمنكر الأفعال، ولا يعتدي على حقوق الغير ولا يقتل أي كائن حي، ولا يسرق ولا يغش ولا يتعاطى الخمور والمخدرات ولا يزني، أي أن السلوك على نحو أخلاقي يعني سلامة القول وسلامة الفعل، ووسائل الكسب العيش.

---

(١) حربي عباس عطيتو، الفكر الشرقي القديم، ص١٥٧.

مزيد من التفاصيل انظر: عبد العزيز محمد التركي، قصة بوذا، مؤسسة المطبوعات المدنية، ١٩٥٩.

ووجد بوذا أن طريق الخلاص لا يمكن للإنسان بلوغه إلا إذا تخلص من النواقص: الوهم-الشك-العمل لكسب القوت- الشهوة الجنسية-الكراهية والحقد-حب الحياة الأرضية- الرغبة في الحياة السماوية-الكبرياء-الغرور.

وقد أحدث بوذا ثورة دينية قلبت الأوضاع الدينية والاجتماعية المألوفة رأساً على عقب، وحارب نظام الطوائف، فلا وجود لطبقة البراهمة أو الكهنة ورجال الدين، وما كانوا يتمتعون به من حظوة ونفوذ وسطوة. فقد نادى بالمساواة بين جميع الأفراد وإنه لا فرق بين الطبقات الثرية والطبقات الدنيا إلا بالجهاد في سبيل تحقيق النرفانا التي لا يمكن الوصول إليها إلا بالجهد الذاتي.

خواطر وتأملات وعظات هندية قديمة من إنجيل بوذا

- العالم مملوء بالشر والعذاب لأنه مملوء بميول الإنسان إلى الشر وبالملذات الحسية، الناس ضائعون ضالون تائهون لأنهم يفكرون بأن الضلال والغواية أفضل بكثير من الحقيقة
- سبب الألم هو ميل الإنسان إلى الشر وإلى الملذات الحسية.
- ارفضوا جشع أنانيتكم تصلوا إلى حالة الفكر الهادئ الذي يصنع الطيبة والرفق والحكمة والتساهل.
- لا تخادعوا، لا تحتقروا ولا تمقتوا بعضكم البعض، وفي أي مكان وجدتم، لا تغضبوا لا تشتموا ولا تهينوا ولا تحقدوا.
- ازرعوا اللطف والعطف والرفق يميناً وشمالاً، وفي كل مكان.
- إن قاعدة الحياة التي هي دائماً الأحسن والأفضل هي الامتلاء بالمحبة، اطرد من قلبك الغضب والحسد والغيرة.
- الشر هو القتل والسرقة والفجور والكذب والاغتيال والحق والإيمان بعقائد باطلة[1].
- الخير هو الامتناع عن القتل والسرقة والفجور والكذب.

---

(١) حربي عباس عطيتو، ص٢٧٨.

- خطايا الجسد الثلاث هي: القتل والسرقة والزنا.
- خطايا اللسان الأربع وهي: الكذب والافتراء والشتم والكلام بالباطل.
- خطايا الفكر الثلاث وهي الطمع والبغض والضلال [1].

الطريق البوذي

أ. الأخلاق ب. التأمل ج. الحكمة

إن الوصف الأساسي للطريق البوذي هو أنه ذو ثلاث شعاب هي: الأخلاق والتأمل والحكمة، وهي ليست ثلاث مراحل متعاقبة يمر المرء بالواحدة منها تلوا الأخرى، وإنما هي شعاب أو دروب نسير عليها جميعاً في وقت واحد.

أ. **الأخلاق:** يعبر عن القواعد الأخلاقية الخمس الأساسية – بالنسبة للرهبان ولعامة الناس على حد سواء في صيغة تستخدم بانتظام في العبادات اليومية، ويمكن ترجمتها على وجه التقريب كما يلي، أتعهد بالإحجام عن إلحاق أي أذى بالكائنات الحية، وأن لا آخذ شيئاً لم يعط لي (أي أن أمتنع عن السرقة)، وبأن أمتنع عن الممارسات الجنسية اللاأخلاقية، وعن الكذب، وتناول الخمر والمخدرات التي تذهب العقل.

وهناك درجة أكثر تقدماً في النظام الأخلاقي يتبعها البعض من عامة الناس وتعتمد على مراعاة ثلاثة مبادئ إضافية هي: أن أمتنع عن تناول الطعام بعد الظهر، وأن أمتنع عن الرقص والغناء وألعاب التسلية، وأن أمتنع عن استخدام أكاليل الزهور أو مستحضرات التجميل، وأن لا أتزين بأي نوع من أنواع الزينة، وكذلك الامتناع عن قبول الذهب والفضة والامتناع عن استعمال فراش وثير.

ب. **التأمل:** السلوك الحق ينبغي أن يصحبه الفكر الحق أو المواقف الحقة، والفكر والعمل مرتبطان بالوجود الحق، لأن تنمية الفكر الحق هي من أول أهداف التأمل.

---

(١) حربي عباس عطيتو، ص٢٨٢.

ج. **الحكمة:** السمات الرئيسية للحكمة التي أعلنها بوذا هي أن الحياة فانية (والكل زائل) فلا شيء يمكن أن يبقى نفس الشيء أو أن يظل على حاله، فالكون كله الذي يمثل الإدراك الحسي هو في حالة تدفق مستمر والناس لا ينظرون إلى الأشياء على أنها دائمة إلا على سبيل الخطأ [1].

وتشمل الحكمة كلاً من الفهم الصحيح للأشياء على ما هي عليه، والعزم على السلوك طبقاً لهذا الفهم.

وتكشف الحكمة عن طبيعة الأشياء وأسباب المعاناة، ولكنها لا تتوقف عند هذا الحد، وإنما هي تعبر كذلك عن نفسها في التصميم على قهر المعاناة من خلال تنحية الرغبة الأنانية، ويتضمن هذا التطعيم غرس حب شامل في عمقه ومداه، يكشف عن نفسه في الشفقة واللا أذى، حيث يتم التخلي كلية عن الرغبات الأنانية وسوء النية والكراهية والعنف، عندما نبلغ الحكمة.

والسلوك الأخلاقي هو في آن واحد انعكاس للحكمة والانضباط وشرط لهما، فالشخص الحكيم هو وحده الذي يمكن أن يكون خيراً، والشخص الخير هو وحده الذي يمكن أن يكون حكيماً، وكل من الحكمة والخير يقتضي الانضباط، وبناء على هذا فإن المرء بدأ وينتهي بالأمور الثلاثة بصورة متزامنة، والسلوك على نحو أخلاقي يعني سلامة القول وسلامة الفعل وسلامة كسب العيش.

وسلامة القول تعني بصفة عامة تجنب كل قول يفضي إلى التعاسة واستخدام العبارات التي تجلب السعادة. ويشمل تطبيقه السلبي.

- لا كذب

- لا نميمة ولا اغتياب ولا حديث قد يجلب الكراهية أو الغيرة أو العداء أو الفرقة بين الآخرين.

- لا حديث يتسم بالشدة أو الوقاحة، ولا حديث يشوبه الخبث، ولا أسلوب ينقصه الأدب أو الاحتشام.

---

(١) جفري بارندر، ص٢٢٨.

-لا ثرثرة نابعة من الكسل أو الخبث أو الحمق.

وسلامة السلوك تعني تجنب القتل أو الإيذاء، والتعفف عن السرقة والغش والنشاط الجنسي غير الأخلاقي وهو على الصعيد الإيجابي يعني أن سلوكيات الفرد ينبغي أن تهدف إلى دعم السلام والسعادة للآخرين.

أما سلامة العيش فهي تمد نطاق مبدأ السلوك الحق إلى المهنة التي يختارها المرء على امتداد حياته، وبناء على هذا فإنها تستبعد المهن التي من شأنها أن تؤذي الآخرين، مثل الإتجار في الأسلحة النارية و الخمور والمخدرات والسموم والقتل والدعارة .. إلخ. وسبل كسب العيش التي تنشر السلام والخير[1].

مذهب السيخ *Sikhism*

ولد المعلم الروحي ناناك Nanak عام ١٤٦٩م، والمكان الحقيقي الذي ولد فيه موضع خلاف، ولكن لا يمكن أن يكون هناك شك في أن والديه ينتميان إلى قرية تلفاندي Talivandi التي تبعد أربعين ميلاً عن جنوب غربي (لاهور) وتعرف الآن باسم ننكانا- صاحب Nankana – Sahub، ولقد قضى ناناك طفولته وشبابه في هذه القرية ولم يتركها إلى بعد أن تزوج وأنجب غلامين.

ثم انتقل ناناك وهو لا يزال شاباً إلى مدينة سلطانبور Sultanpur وفي أواخر عام ١٥٠٠ غادر هذه المدينة وتبنى حياة الزهاد المتجولين داخل الهند وخارج حدود الهند.

مع بداية أول مؤلف تم تسجيله من كتب السيخ المقدسة نجد فكرة واحدانية الله، فالله عند المعلم (ناناك) واحد، وهو الخالق، المفارق المتعالي الذي يجب أن يرتبط به ارتباطاً وثيقاً أولئك الذين يبحثون عن الخلاص.

---

(١) جون كولر، ص٢٠١.

ويصف المعلم ناناك الله بأنه الواحد الذي لا شكل له، وهو الأزلي وهو (ما لا يوصف)، والله حاضر في كل مكان وموجود في كل مكان.

طريق الخلاص:

إن العقبة الرئيسية التي تعوق عملية السعي إلى الخلاص هو الوضع البشري، فالناس في ضلالهم واقعون في عبودية العالم، لأن ولاءهم للعالم ولقيمة، وهذا التعلق بالعالم يسجنهم داخل دورة تناسخ لا نهاية لها من الميلاد والموت.

فالناس يسعون إلى تحقيق الخلاص عن طريق التعلق بالقيم الدنيوية، ولذلك فهم ضحايا الوهم الذي يصور لهم أن التعلق بالقيم الدنيوية هو الحقيقة في ذاتها. وهذه الحالة من الضلال أو الوهم تمنع الكشف أو التجلي الإلهي.

وعلى الإنسان أن يتجاوز هذا العالم الدنيوي بنظام العبادات والزهد لكي تجد الروح اتحادها الصوفي بالله، وتبلغ الروح مرحلة الانعتاق باندماجها في الله [1].

الفلسفة اليونانية

♦ طاليس:

أدرك طاليس ٥٤٦ ق. م أن الماء ضروري لحياة الإنسان والحيوان والنبات وإن شيئاً ما لا يمكن أن يثمر أو يتوالد بدون الماء، كما أننا نجد أن البذور الأصلية لجميع الأحياء تحتفظ بقدر

---

(١) جفري باندر، ص٢٠٧.

من الرطوبة.

ويذكر أرسطو أن طاليس هو القائل: (بأن الماء هو العلة المادية للأشياء جميعاً، وأن الأرض تطفو فوق الماء، وأن للمغناطيس قوة حيوية، وأن العالم مليء بالآلهة).

فما معنى قول طاليس أن الماء هو العلة المادية للموجودات؟ يقصد بذلك الإشارة إلى أن الماء هو المادة الأولى الخام لجميع الأشياء، هذه المادة تتشكل بعد ذلك وتتخذ صوراً أو هيئات مختلفة.

وكأن طاليس يريد أن يصل إلى مبدأ أول مادي يفسر به التغيرات المختلفة التي تطرأ على الظواهر الطبيعية، فرأى أن الماء هو العنصر الوحيد الذي يمكن أن يتخذ أشكالاً مختلفة، فقد يتحول هذا السائل إلى مادة غازية أو إلى مادة جامدة التراب والثلج، ويذكر طاليس أنه رأى بنفسه كيف تتم هذه التحولات في الطبيعة وكيف أن هذه التحولات تبدأ من الماء لتعود إلى الماء، فالماء يتحول بفعل الحرارة إلى بخار، ثم يعود ليتساقط على هيئة مطر، ثم يتحول بعد ذلك إلى تراب يتحول إلى ماء كما نشاهد في الينابيع الأرضية مثلاً، ومن ناحية أخرى فقد أوحت إليه ظاهرة التبخر القول بأن الرطوبة المتصاعدة من البحر على هيئة بخار هي التي تحفظ نار الأجسام الإلهية السماوية[١].

وينسب أرسطو لطاليس قوله: (بأن العالم مليء بالآلهة)، ويفسر أرسطو هذا القول بأن طاليس ربما يعني بذلك أن للعالم نفساً، أو هناك عقل للعالم، فهناك عقل إلهي أوجد الأشياء من الماء، وقد أرجع طاليس الظواهر الكونية إلى أصل واحد على أساس منطقي، والنظر إلى العالم على أنه وحدة متناسقة في الوجود[٢].

---

(١) محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي من طاليس إلى افلاطون، دار المعرفة الجامعية، ط٥، ١٩٧٣، ص٦٢.

مزيد من التفاصيل انظر:

أميرة حلمي مطر، الفلسفة عند اليونان، دار مطابع الشعب، ١٩٦٥.

(٢) محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي من طاليس إلى أفلاطون، دار المعرفة الجامعية، ط٥، ١٩٧٣، ص٦٢.

انكسمندر: يرى أن الأشياء كلها مستمدة من عنصر أول أوحد، لكن هذا العنصر ليس هو الماء كما ظن طاليس، ولا هو أي عنصر آخر مما نعرف، بل إنه لا نهائي وخالد ولا حدود لزمانه، وهو (يحتوي على العوالم كلها) ذلك لأنه ظن أن عالمنا هذا إن هو إلا عالم واحد من طائفة كبيرة، وهذا العنصر الأول يتحول إلى العناصر المختلفة التي نألفها، ثم تتحول هذه العناصر المألوفة أحدها إلى الآخر، وله في ذلك عبارة هامة تستوقف النظر (إن الأشياء تعود فترتد إلى العنصر الذي منه نشأت، كما جرى بذلك القضاء، لأنها تعوض بعضها بعضاً، ويرضى بعضها، لما وقع منها من إجحاف، كما يقضي بذلك أمر الزمان).

ففكرة العدالة، سواء في ذلك العدالة الكونية والعدالة الإنسانية، قد لعبت دوراً في الفلسفة اليونانية، وقد عبر انكسمندر عن فكرة العدالة بأنه لابد أن يكون هناك نسبة معينة من النار ومن التراب ومن الماء في العالم، لكن كل عنصر من هذه العناصر (وقد تخيلها آلهة) لا يغني عن السعي في سبيل اتساع رقعة ملكه، غير أن ثمة نوعاً من الضرورة أو القانون الطبيعي لا ينفك يرد التوازن إلى حيث كان، فحيث كان نار مثلاً نرى الآن رماداً، والرماد من التراب – هذه الفكرة عن العدالة، والعدالة هنا معناها عدم مجاوزة الحدود المفروضة منذ الأزل، هي من أعمق العقائد اليونانية، وكانت الآلهة خاضعة لحكم العدالة خضوع البشر له.

وكان لانكسمندر حجة يدلل بها على أن العنصر الأول لا يمكن أن يكون ماء ولا عنصر آخر غير الماء مما نعرف لأنه لو كان من هذه العناصر عنصر أولي لاكتسح العناصر الأخرى، ويروي عنه أرسطو أنه قال: إن هذه العناصر المعروفة لنا

مزيد من التفاصيل انظر ول ديورانت، قصة الحضارة، حياة اليونان، ج٢، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة، ١٩٥٣.

يعارض بعضها بعضاً، فالهواء بارد والماء رطب والنار حارة، وعلى ذلك فلو كان أحد هذه العناصر لا نهائياً، لزالتا العناصر الباقية قبل اليوم) وإذن فلابد أن يكون العنصر الأولي محايداً في هذا الصراع الكوني[١].

ويقول انكسمندر إن اللامتناهي هو العلة المادية والعنصر الأول في وجود الأشياء جميعاً، ورفض القول بأن اللامتناهي ماء أو أي عنصر آخر، إذ أنه في نظره جوهر مختلف عن كل هذه العناصر. وهذا اللامتناهي أزلي لا زمن له تصدر عنه كل السموات والعوالم الموجودة في هذه السماوات ويوضح انكسمندر أن هناك شيء أزلي لا يفنى هو مصدر الأشياء جميعاً وترجع إليه هذه الأشياء، فهو معين لا ينضب.

والواقع أن موقف انكسمندر تطور طبيعي لفكرة طاليس، لقد رأى انكسمندر أن الماء لا يمكن أن يكون مصدراً لجميع الموجودات، ولابد أن تكون العلة الأولى شيئاً عاماً يقبل التشكلات المختلفة، كما يقبل الأضداد، وإذن فقد قال باللامتناهي السابق على العناصر، أما هذه المادة اللامحدود فإنها تشتمل على الأضداد، ويظل النزاع مستمراً بين هذه الأضداد، إذ أن كلا منها يحاول التغلب على ضده، فيتغلب الحار على البارد في فصل الصيف مثلاً، ويحدث العكس في فصل الشتاء، وينتهي هذا الصراع في الغالب لمصلحة أحد الطرفين لمدة موقوتة ليعود فيتلاشى في المادة الأولى[٢].

انكسيمانس: لم يوافق انكسيمانس رأي انكسيمندر على أن الجوهر الأول لامتناه، وقال بل العكس من ذلك بأنه مبدأ محدود معين هو الهواء. ومن هذا المبدأ تصدر الأشياء جميعاً بما في ذلك الآلهة والموجودات الإلهية. وهذا الهواء ليس مرئيا لنا، ولكن البرودة والحرارة والرطوبة تجعل من الممكن رؤيته. والهواء في

---

(١) برتراندرسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الفلسفة القديمة، ترجمة زكي نجيب محمود، ج، ط٣، ١٩٧٨، ص٥٩.

مزيد من التفاصيل انظر مراد وهبة، قصة الفلسفة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٨٠.

(٢) محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي، مرجع سابق ص٦٣،

حركة دائمة لأنه لو كان ساكناً لما حدث تغير ما، واختلافه في الموجودات المتكثرة يكون بفعل التكاثف والتخلخل Coudensation and rarefaction فعندما يتمدد يخلخل ويصبح ناراً، وعندما يتكاثف يصبح رياحاً، وعندما يتبدد يصبح سحباً وإذا ازدادت درجة تكاثفه فوق هذا أصبح الماء تراباً، وإذا تكاثف هذا التراب فوق ذلك أصبح صخراً، وإذن فالتغيرات التي تطرأ على المبدأ الأول هي تغيرات كمية [1].

والعنصر الرئيسي عنده هو الهواء، فالروح هواء، والنار هواء مخلخل، وإذا ما تكثف الهواء انقلب بادئ الأمر ماء، ثم إذا مضيت في تكثيفه، انقلبت تراباً، وبعدئذ يكون صخوراً، ولهذه النظرية حسنة هي أنها تجعل الفوارق كلها بين العناصر المختلفة اختلافاً في الكمية، يعتمد كل الاعتماد على درجة التكثف.

ومن رأيه أن الأرض تشبه المنضدة المستديرة، وأن الهواء يحيط بكل شيء (فكما أن روح الإنسان لكونها هواء تمسك جسده، فكذلك ترى النفس والهواء يحيطان بالعالم كله، فقد يظهر أن العالم يتنفس)[2].

الفيثاغورية ٥٣٢ ق.م

الفيثاغورية فلسفة رياضية كونية وطريقة صوفية تؤمن بتطهير الروح من البدن، وتعد اتباعها لحياة التأمل والرياضة الروحية.

والفيثاغورية جاءت في موضعها الصحيح من حلقات تطور الفكر الفلسفي عند اليونان، وذلك أن العقل اليوناني بعد أن اتجه إلى المحسوس الخارجي يتلمس الحقيقة في ثناياه، اكتشف أن هذا المحسوس إنما يخضع لنظام معين، وأن الرياضة هي التي

---

(١) محمد علي أبو ريان، مرجع سابق، ص٦٤.

مزيد من التفاصيل انظر ول ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٨٥.

(٢) برتراندرسل، ج١، ص٥٨.

تترجم عن هذا النظام، وكان على الفيثاغوريين أن يقوموا بهذا الدور، وأن يكشفوا ما تنطوي عليه المحسوسات من نظام وترتيب تمثله الأعداد والخطوط، وهنا نجد أن الفلسفة تجاوزت المحسوس إلى نوع من التجريد الوسط وهو التجريد الرياضي.

لقد اختلطت تعاليم الفيثاغوريين الروحية بأرائهم العلمية ونظرياتهم الرياضية، ولكن غلبة الاتجاه الرياضي على اتباع هذه المدرسة جعلت المؤرخين يطلقون اسم (فيثاغوري) على المشتغلين بالرياضيات منهم فحسب، أما التعاليم أو الوصايا الروحية التي عرفت عن هذه المدرسة فأهمها اعتقادهم بوجود نوع من القرابة بين الإنسان والحيوان، ومن ثم فهم يحرمون تقديم القرابين الدموية ويمتنعون عن أكل اللحم، ويذكر بعض المؤرخين أنهم كانوا يمتنعون فقط عن أكل لحم الحملان وثيران الحرث، وما ذبح على النصب من قرابين مقدمة للآلهة.

ومن وصاياهم: امتنع عن أكل البقول-لا تقطف زهرة من إكليل لا تلمس ديكاً أبيض-لا تأكل من رغيف بأكمله-لا تعبر فوق عارضة طريق.

ويبدو من هذه الوصايا أن الفيثاغوريين قد ضمنوا تعاليمهم الكثير من آراء اللاهوتيين ومحترفي السحر في عصر ما قبل الفلسفة.

وكانت الطريقة التي أسسها فيثاغورث تجمع بين حياة التقشف والرياضة الروحية والفكر الرياضي، وكانت عقيدة التناسخ محور تعاليم فيثاغورس وعليها تدور مجاهدات الفيثاغوريين وطقوسهم الدينية ومبادئهم الأخلاقية[1].

ويستهدف الفيثاغوريون من التناسخ تحرير النفس وخلاصها إلى المقام الأعلى حيث السعادة التامة، وذلك بعد سلوك طريق التطهر من الحس.

---

(١) محمد علي أبو ريان، مرجع سابق، ص٧٣.

وقد أشار هرقليطس إلى أن فيثاغورث هو أول من ميز بين أنواع ثلاثة من الحياة: الحياة النظرية، والحياة العملية وحياة التأمل والعكوف على الذات. ومهما كانت صور الحياة التي نحياها إلا أننا يجب أن نسلم بأننا غرباء في هذه الدنيا وأن الجسم الذي يربطنا به إن هو إلا مقبرة النفس [1].

ويرى الفيثاغوريون أن الحياة مرحلة صعبة ويتعين على كل من يريد أن يجتازها بنجاح، أن يتلقى تدريباً منظماً، وأن يطيل فترات الصمت وأن يستبطن نفسه يومياً ليختبر جوانبها وأطوارها ويقول أفلاطون إن فيثاغورث وأتباعه يرون أن المجهود العقلي هو أسمى صور التطهر، وهو أضمن الطرق لتحرير النفس في حياتهما هذه قبل الموت البدني، وكان الفيثاغوريون يستخدمون الموسيقى والرياضة لشد أزر النفس، وقمع نزوات البدن، ومقاومة المؤثرات الخارجية حتى تسيطر القوى الروحية على الفرد، وتتغلب على كل ما له علاقة بالحس والمحسوس. وقد رتب المتأخرون من الفيثاغوريين لكل من النفس والبدن أساليب خاصة للتطهر من المؤثرات الخارجية. فتطهير النفس يتم بالموسيقى والعكوف على الدراسات العلمية، أما تطهير البدن فإنه يتم بممارسة الرياضة ويلاحظ أن فكرة (الأخوة) التي نادى بها الفيثاغوريون مستمدة من عقيدتهم في التناسخ، ذلك إنهم يرون أن الموجودات كلها بما في ذلك النبات والحيوان والإنسان ترتبط فيما بينها برباط وثيق، وإنه في مرحلة الولادات قد تتقمص النفس جسم حيوان آخر أو إنسان آخر أو نبات مثلاً، وكان من نتائج مذهبهم هذا أن اعتبرت المرأة في جماعتهم مساوية للرجل ولها نفس حقوقه، معاملة العبيد معاملة إنسانية، ومن الناحية الاجتماعية أيضاً نجد أن الفيثاغوريين كانوا لا يميزون بين الأفراد إلا من حيث مواهبهم، فهم يصنفون الناس حسب طباعهم ومميزاتهم، وقد تحقق

---

(١) محمد علي أبو ريان، مرجع سابق، ص٧٣.

مزيد من التفاصيل انظر محمد فتحي عبد الله، الفلسفة اليونانية، مدارسها وأعلامها، ج٢، ٢٠٠٦.

هذا التدرج بين الناس في التناسخ [١].

وتميل المذاهب التي أوحى بها فيثاغورس إلى البحث في العالم الآخر، إذ تجعل القيمة كلها لوحدة الله التي لا تراها العيون، وتتهم العالم المرئي بالبطلان والخداع.

وقد أوضح فيثاغورس أن الروح خالدة، وأنها تتحول ضروباً أخرى من الكائنات الحية، وكل ما يظهر في الوجود يعود فيولد في دورة معلومة فلا شيء جديد كل الجدة، وأن كل ما يولد وفيه دبيب الحياة، ينبغي أن ينظر إليه جميعاً نظرتنا إلى أبناء الأسرة الواحدة.

نحن في هذا العالم غرباء، والجسم هو مقبرة الروح، ومع ذلك فلا يجوز لأحد منا أن يلتمس الفرار بالانتحار، لأننا ملك الله، هو راعينا، والناس في هذه الحياة ثلاثة ضروب تقابل الضروب الثلاثة من الناس الذين يفدون إلى الألعاب الأوليمبية فأحط الطبقات جماعة جاءت تبيع وتشتري ويتلوها ارتفاعاً أولئك الذين يتنافسون في المضمار، وخير الناس جميعاً هم أولئك الذين جاءوا ينظرون إلى ما يجري وحسبهم ذلك، وعلى ذلك فأعلى درجات التطهير النفسي هو العلم الذي لا يجعل الهوى أساسه، وإن من يستطيع تكريس نفسه لذلك هو الفيلسوف الحق.

ولذلك فإن التأمل العاطفي الوجداني عند فيثاغورس هو الفهم العقلي الذي يتمثل في المعرفة الرياضية. فالفيلسوف التجريبي عبد لمادته، أما الرياضي البحت فهو كالموسيقى يخلق عالمه بتنسيقه الجميل خلقاً حراً.

فالتأمل العقلي قد أدى إلى خلق الرياضة البحتة، وذلك أدى إلى نجاح الفيلسوف في اللاهوت والأخلاق والفلسفة وهو نجاح لم يكن ليظفر به لولا ما أظهره من نفع في عالم الرياضة[٢].

فالرياضة هي المصدر الأساسي الذي عنه تفرع الاعتقاد في حقيقة أبدية مضبوطة، وفي عالم معقول فوق مستوى الحس،

---

(١) محمد علي أبو ريان، مرجع سابق، ص٧٤.

(٢) برتراندرسل، ج١، ص٧٢.

فالفكر أسمى منزلة من الحواس، وإن ما ندركه بالتفكير أقرب إلى الحق مما ندركه بالحواس. وكان تأثير فيثاغورس بأن العالم الأزلي ينكشف للعقل ولا ينكشف للحواس [1].

هرقليطس ٥٤٠/ ٤٧٥ ق. م

يرى هرقليطس أن الأشياء في تغير مستمر، وأن القانون العام الذي ينظم الوجود هو التغير وعدم الثبات، والتجدد المستمر، فكل شيء في سيلان مستمر، ولا يوجد شيء باق على الإطلاق، فالإنسان لا يستطيع أن يضع قدمه في نهر واحد مرتين لأن النهر يكون قد تغير بين الخطوتين، ونحن موجودون وغير موجودين، وكما يوجد الواحد من الأشياء جميعاً، كذلك الأشياء تصدر عن الواحد، والله هو النهار والليل، والصيف والشتاء، والسلام والحرب، وهي ماهية الأشياء جميعاً، وهذا العالم لم تصنعه الآلهة أو البشر، ذلك أنه وجد هكذا، وسيستمر هكذا، وهو نار حية. والسبب الذي دعاه إلى القول بأن النار هي العنصر المكون للوجود هو أنها أقل العناصر ثباتا. وهو لا يقصد بالنار هنا اللهيب فحسب، بل أيضاً الدفء والحرارة على وجه العموم، ولذلك فقد سماها (البخار المتصاعد).

وتتكون الأشياء من النار ثم تعود إليها، وهكذا، ولما كان لا يوجد شيء ثابت على الإطلاق، فلا توجد إذن أي صورة باقية، إذ كل شيء في تحول مستمر من حالة إلى ضدها، فالشيء الواحد يتضمن في ذاته الأضداد جميعاً، والصراع قانون العالم، والتنازع أبو الأشياء، وكل ما يتفرق ويتحطم يعود ليلتئم من جديد، ويتحكم القانون الإلهي والقدر والحكمة والبقاء الكلي في كل شيء، ولو أن هناك تغيراً دائماً إلا أن هذا التغير يتم حسب قوانين ثابتة، إذ تتغير الأشياء ثم تعود ثانية. وتمر العناصر الأولية في تحولاتها بثلاثة مراحل أساسية: فمن النار يتكون الماء، ومن الماء يتكون التراب، وعلى العكس يعود التراب فيصبح ماء ثم يصبح الماء ناراً، وجميع الموجودات عرضة لهذا الأسلوب في التغير.

ولكن الموجودات تبدو لنا في الظاهر كما لو كانت ثابتة، ذلك لأنها تتلقى من جانب نفس المقدار الذي تفقده من جانب آخر،

---

(١) برتراندرسل، ج١، ص٧٢.

ويضرب لنا هرقليطس مثلاً بالشمس فإنها تتجدد كل يوم، فما تفقده بالنهار تتلقاه في الليل نتيجة للأبخرة المتصاعدة من البخار، إلا أنه إذا ما انتهت الأشياء جميعاً إلى النار الأصلية بحيث لا يبقى في العالم سوى النار، فإنه يكتمل دور من أدوار الوجود المتعاقبة، وتتكرر هذه الأدوار إلى مالا نهاية.

والنفس الإنسانية جزء من النار الإلهية، وكلما كانت هذه النار أكثر جفافاً، كانت أقرب إلى الكمال، وإذن فالنفس الأكثر جفافاً هي أحكم النفوس وأفضلها، وعندما تترك النفس الجسم تعود من حيث أتت، إلى عالم النار، ومن ثم فإن المذهب لا يعترف بخلو فردي للنفس مادام هناك تغير مستمر [١].

أي أن النار هي العنصر الرئيسي، فكل شيء مثل لهب النار يولد بموت غيره، (إن أصحاب الفناء خالدون، والخالدين هم أصحاب الفناء، وكل واحد يعيش بموت غيره ويموت بحياة غيره). وفي العالم وحدة واحدة لكنها وحدة مؤلفة من اجتماع الأضداد (إن الأشياء جميعاً تخرج من الواحد، والواحد يخرج من الأشياء جميعاً) لكن الكثرة أقل واقعية من الواحد الذي هو الله.

ونزعته الخلقية ضرب من التقشف، فيذهب إلى أن النفس مزيج من نار وماء، والنار منها جانب شريف، والماء جانب وضيع، ويسمى النفس التي رجمت فيها النار نفساً (جافة) إن النفس الجافة أحكم النفوس وأفضلها.

إنه من العسير على الإنسان أن يحارب رغبات قلبه، فكل ما يشتهيه القلب إنما يشترى على حساب النفس، ليس من الخير للناس أن يحصلوا على كل ما يريدون الحصول عليه، أي أن هيرقليطس يقدر القوة إن ظفر بها الإنسان، من سيطرته على نفسه، ويحتقر العواطف التي تصرف الناس عن مطامحهم الأساسية.

ويوضح هيرقليطس فكرة التغير، فكل شيء في تحول

---

(١) محمد علي أبو ريان، مرجع سابق، ص٨٨.

مزيد من التفاصيل انظر مصطفى النشار، من التاريخ إلى فلسفة التاريخ، قراءة في الفكر التاريخي عند اليونان، دار قباء، ١٩٩٧.

دائـم، (إنـك لا تسـتطيع أن تخطـو مـرتين فـي نهـر بعينـه، لأن ماءاً جديداً سيظل دفاقاً عليك)، (إن الشمس تتجدد كل يوم) (إن كل الأشياء تتحول إلى نار والنار تتحول إلى أي شيء)، (إن النار تحيا بموت الهواء والهواء يحيا بموت النار، والماء يحيا بموت التراب، والتراب يحيا بموت الماء).

كما اهتم هيرقليطس بمذهب امتزج الأضداد، فهو يقول: (إن الناس لا يعرفون كيف يعود ما هو متباين التكوين إلى الاتفاق مع نفسه، والأمر هنا عبارة عن اتساق الأنغام الصادرة من أوتار متضادة لنغم القيثارة. إن في العالم وحدة، ولكنها وحدة نتجت عن تباين، فالأضداد تشترك لتنتج حركة الانسجام.

أزواج الأشياء هي أشياء كاملة وأخرى غير كاملة، هي ما ينجذب بعضه إلى بعض، وما ينفصل بعضه عن بعض، هي المتناغم والناشز، إن الواحد متألف من كل الأشياء، وكل الأشياء صادر عن الواحد)، ونراه أحياناً يتحدث كأنما الوحدة أصل التباين؛ (الخير والشر واحد).

(كل الأشياء بالنسبة لله عادلة وخيرة وصحيحة، أما الناس فيرون بعض الأشياء خطأ وبعضها صواباً). (الطريق الصاعد والطريق الهابط هما طريق واحد بعينه).

الله هو النهار والليل والشتاء والصيف والحرب والسلام، والشبع والجوع، لكنه يتخذ أشكالاً عدة، (فإذا لم يكن هناك أضداد يلتئم بعضها مع بعض لما كان هناك اتحاد) (إنه الضد الذي يكون مصدر الخير لنا)[1].

بارمنيدس: ٤٥٠ ق.م

وإذا كان هرقليطس قد رأى أن الأشياء في حركة دائمة،

---

(١) برتراندرسل، ج١، ص ٨٠، ٨١.

مزيد من التفاصيل انظر:

فيليب ويلرايت، هيرقليطس. فيلسوف التغير وأثره في الفكر الفلسفي، ترجمة عبده الراجحي، مراجعة علي سامي النشار ومحمد علي أبو ريان، دار المعارف، ١٩٦٩.

وأن الأضداد تتمدد لتؤلف الانسجام في الكثرة فإننا نرى على العكس من ذلك أن بارمنيدس كان يقف على النقيض من هذه الآراء فينفي بارمنيدس ومدرسته الكثرة والتغير، ويقول بالثبات والوحدة، ويذهب إلى أن وراء التغيرات الظاهرية توجد ضرورة وقانون ثابت، وأن هناك وحدة ووجود ثابت، وعلى هذا، فالحركة والكثرة ليستا إلا عرضين ظاهريين. وليس ثمة قانون للوجود الحقيقي، غير الوحدة الشاملة والثبات الدائم.

ويرى بارمنيدس أن الوجود موجود ويستحيل ألا يكون موجود، وقد فهم من فكرة الوجود أنها ليست مجرد تصور منطقي بل إنها تشير إلى كتلة الموجودات ذاتها في الماء، أما اللاوجود فلا وجود له في الواقع أو في التصور، فاللاوجود غير موجود ولا يمكن تصوره، ومن هذه القاعدة استمد بارمنيدس مذهبه في طبيعة الوجود، فليس للوجود مبدأ ولا نهاية، لأنه لا يمكن أن يخلق من العدم، أو اللاوجود، وكذلك لا يمكن أن ينتهي إلى العدم، فلم يكن الوجود غير موجود في الماضي ولن ينقطع عن الوجود، بل هو موجود الآن وفي كل وقت بصفة مستمرة، وهو أيضاً غير منقسم لأنه هو في كل مكان، ولا يمكن أن يوجد ما يقسمه، ولا حركة فيه ولا تغير، متشابه الأجزاء، شبيه بشكل كري مستدير له أبعاد متساوية من مركزه إلى جميع جوانب سطحه، والفكر لا يختلف عن الوجود، لأنه ليس إلا فكر الوجود، والإدراك الوحيد الغير متغير في كل شيء. أما الحواس التي ندرك عن طريقها ظواهر الكون والفساد والتغير، هذه الحواس هي مصدر الخطأ. فالحواس تخدعنا، إذ أنها لم تظهر لنا الأشياء كما لو كانت في تغير مستمر، وأنها إلى فناء محقق، بينما الواقع بخلاف ذلك، إذ الوجود واحد ثابت غير متغير [1].

ويقوم مذهب بارمنيدس على أن الحواس خادعة، ويعتبر كثرة الأشياء المدركة بالحواس أوهاماً لا أكثر، والكائن الحقيقي الوحيد هو (الواحد) الذي هو لا نهائي ولا يقبل الانقسام، وليس هذا الواحد-كما ارتأى هرقليطس-وحدة قوامها الأضداد، لأنه ليس هناك

---

(١) محمد علي أبو ريان، مرجع سابق، ص٩٣.

أضداد، فالظاهر أنه رأى مثلاً أن (بارد) معناها غير حار و(مظلم) معناها (غير ذي ضوء) ولا ينظر بارمنيدس إلى (الواحد) نظرتنا نحن إلى الله، إذ الظاهر أنه يتصوره مادياً وله امتداد لأنه يتحدث عنه على أنه كري الشكل، لكنه مع ذلك لا يقبل الانقسام لأنه بأسره موجود في كل مكان.

ويقسم بارمنيدس تعاليمه قسمين يسميها على التوالي (طريق الحقيقة) و(طريق الظن)، ويقول عن طريق الحقيقة (إنك لا تدري ما ليس بموجود –لأن ذلك مستحيل- بل لا يمكنك أن تنطق به، لأن ما يمكن التفكير فيه وما يجوز وجوده في شيء واحد في كلتا الحالتين.

إذن فكيف يمكن لما هو موجود فعلاً أن يصير موجوداً في المستقبل؟ أو كيف يمكن له أن يجيء إلى عالم الموجود؟ إنه لو كان قد جاء إلى عالم الموجود، إذن فليس هو بالموجود، وليس هو بالموجود أيضاً لو كان سيصير موجوداً في المستقبل، وعلى ذلك فالصيرورة تنمحي، وانقضاء الشيء في عالم الماضي يزول الكلام فيه).

(إن الشيء الذي يمكن أن يكون موضوعاً للتفكير، والشيء الذي من أجله يوجد التفكير، هو هو بعينه شيء واحد في كلتا الحالتين، لأنك لن تجد تفكيراً بغير شيء موجود، يدور حوله الكلام)[1].

ومغزى هذا القول هو ما يأتي: (إنك إذا فكرت، كان تفكيرك عن شيء، وإذا استعملت اسماً فلابد أن يكون اسماً لشيء، وعلى هذا فالفكر واللغة كلاهما يستلزمان وجود أشياء خارجة عنهما، ولما كان في مقدورك أن تفكر في شيء أو تتحدث عنه في أي لحظة، لا فرق بين لحظة وأخرى، فما يمكن التفكير فيه أو الكلام عنه، كائناً ما كان، لابد أن يكون موجوداً في كل آن، وينتج عن ذلك ألا تغير مادام التغير معناه أن الأشياء توجد بعد أن لم تكن، أو ينعدم وجودها بعد أن كانت[2].

---

(١) برتراندرسل، ص٩٢.

(٢) برتراندرسل، ج١، ص٩٢.

أمبادقليس ٤٤٠ ق. م

يرى أن العناصر الأربعة التراب والهواء والنار والماء قديمة، لكن العناصر يمكن أن تمتزج بنسب مختلفة فينتج عن امتزاجها المواد المركبة المتغيرة التي نصادفها في العالم، والحب هو الذي يصل هذه العناصر، والبغضاء هي التي تفصلها، وكان الحب والبغضاء في رأي امبادقليس عنصرين أولين يتساويان منزلة مع التراب والهواء والنار والماء، وقد مضت دهور كان الحب فيها صاحب السيادة، ودهور أخرى كانت البغضاء أقوى الجانبين، وجاء عصر ذهبي كان فيه النصر للحب، وعندئذ كان الناس لا يعبدون إلا أفروديت القبرصية. وليست تغيرات العالم مسيرة وفق هدف منشود. لكنها (المصادفة) و(الضرورة) وحدهما هما اللذان يسيرانها، والعالم يسير في دورات متعاقبة، فإذا ما مزج الحب العناصر مزجاً تاما، أخذت البغضاء شيئاً فشيئاً بشنها حرباً من جديد، حتى إذا ما وفقت البغضاء إلى التفرقة بينها، عاد (الحب) فوحد شيئاً فشيئاً، وعلى ذلك تكون كل مادة مركبة مؤقتة. وليس ثمة من دوام إلا للعناصر ولقوتي (الحب والبغضاء). فالبغضاء لا تسيطر وحدها على العالم بل يعمل الحب إلى جانبها، فينتجان التغير.

وذهب إمبادوقليس إلى أن العالم المادي كروي الشكل، وأنه في العصر الذهبي كان البغضاء خارج الكرة والحب داخلها، ثم أخذت البغضاء تتسلل إلى الداخل فتطرد الحب، وهذه الدورة تتكرر وبهذا يفسر إمبادوقليس التغير في الكون، ودوام الصراع بين التنافز والوئام، ويظهر الواحد تلو الآخر، ويسود السلام والوحدة أحياناً في ظل أفروديت، ثم يتلوها مرة أخرى القتال بسبب مبدأ التنافر.

وبعض الناس يحظى في النهاية بالنعيم الأبدي في رفقة الآلهة، ولعل هؤلاء هم الذين يترفعون عن الخطيئة خلال التجسدات الكثيرة التي تظهر فيها أرواحهم (ولكنهم يظهرون آخر الأمر بين البشر الفاني سنظهر أنبياء وناظمي أناشيد وأطباء وأمراء، وبعدئذ يصعدون آلهة مجدهم الشرف، يقاسمون سائر

الآلهة مدفأتهم ويجلسون معهم إلى مائدة واحدة أحراراً من متاعب بني الإنسان، آمنين من بطش القضاء، وبمنجية من الأذى)[1].

مذهب أنبادوقليس هو محاولة التوفيق بين آراء هيرقليطس في التغير المستمر وآراء بارمنيدس في الثبات الدائم، فقد رأى أن الكون والفساد والتغير ليست سوى اتصال وانفصال الجواهر الآلية غير المتغيرة، والتي تختلف عن بعضها من حيث الكيف، ولكنها منفصلة كماً، وهذا لا يعني أنها ذرات إذ هي في حقيقة الأمر العناصر الأولى للموجودات. وكان أنبادوقليس يرى أن العناصر الأربعة الماء والنار والهواء والتراب هي الأصول للأشياء جميعاً، وهذه العناصر لا يتحول أحدها إلى الآخر، ولا تأتلف لتكون عنصراً جديداً، فأي اجتماع لها هو مجرد اختلاط لأجزاء صغيرة تحتفظ بقوامها أو بطبائعها المميزة دون مزج أو اندماج يفقدها خواصها المميزة. وتؤثر الأجسام بعضها في البعض الآخر بأن تخترق أجزاء صغيرة من جسم ما إلى مسام جسم آخر، وإذا توافقت هذه الأجزاء الصادرة من الجسم مع مسام الجسم الآخر، فإنه يحدث جذب بين الجسمين.

مصدر الحركة مبدآن هما سبب انفصال العناصر واتصالها، أحدهما قوة توحيد ووصل وهو المحبة والآخر قوة التفريق أو الفصل وهو الكراهية، والعالم تتعاقب عليه أدوار من المحبة والكراهية إلى مالا نهاية.

ويفسر أنبادوقليس تكوين العالم بواسطة الحركة الدائرية، حيث تنفصل السموات والنجوم والهواء والأرض تدريجياً عن كتلة الوجود الأولى، وذلك بفضل الحركة الدائرية المتصلة. ولأنبادوقليس نظرية في التطور التاريخي للموجودات سواء كانت نباتاً أو حيواناً أو إنساناً، فعنده أن الأطراف الجسمية تكونت أولاً على أشكال منفصلة ثم اجتمعت هذه الأطراف بفعل المحبة واتحدت لتكون أشكالاً ضخمة غير مهذبة.

وقد اعتقد أنبادوقليس بتناسخ الأرواح، وهذه الأرواح تحيا حياة أزلية كلها سعادة وغبطة، ويعتبر الوجود الأرضي نوعاً من العقاب للأرواح التي أسقطت على هذه الأرض.

---

(١) برتراندرسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ج١، ص١٠١، ١٠٢.

وقد حرم هذا المذهب أكل اللحم وتقديم القرابين الدموية، وكذلك فقد اعتبر الحرب مظهراً من مظاهر الكراهية وعلى العكس فالسلام مظهر من مظاهر المحبة[١].

أنكساجوراس ٥٠٠ – ٤٢٨ ق. م

كان انكساجوراس على العكس من أبنادوقليس مبتعداً عن أي اتجاه صوفي، فقد اتبع طريقة التفسير العقلي المحض، وقد رفض فكرة التفكير الكيفي للأشياء، وفسر الوجود باتصال وانفصال الجواهر الموجودة بالفعل، وعلى ذلك فإن تغير كيفي لن يكون في حقيقة الأمر سوى تغير في التركيب المادي للجوهر.

ورأى أنكساجوراس أن المحبة والكراهية لا يمكن أن يكفيا لتفسير الحركة، لذلك فقد قال بأن هذه الحركة لابد وأن تكون من فعل موجود تسمو معرفته وقدرته على الموجودات جميعاً. وهذا الموجود يجب أن يكون مفكراً ومعقولاً وقادراً، هو العقل Nous وهذا العقل لا يختلط بأي شيء من الأشياء، وهو متميز عن المادة كل التميز، إذ هو موجود بسيط غير قابل للقسمة، بينما المادة مركبة. ووظيفة العقل الأساسية هي تفريق كتلة المادة المختلطة، فهي خليط من عدد لا يحصى من الأجزاء القديمة الغير متغيرة والغير منقسمة، والغير قابلة للعدم.

ويفسر أنكساجوراس وجود الأرض والكواكب بالحركة الدائرية التي لا تنقطع أبداً، ويرجع الفضل إلى انكساجوراس لقوله بمبدأ عقلي متمايز عن المادة، ولذلك فهو يعد أول المتكلمين عن الثنائية الفلسفية بين العقل والمادة، وهو يرى أنه على الرغم من تدخل العقل في عمليات الإيجاد والحركة والتنظيم إلا أن العقل يوجد بنفسه، ولا يختلط بالمادة أصلاً رغم تصرفه في جميع الأجسام، ورغم كونه القوة المحركة والمسيطرة على جميع الأشياء المرتبطة بالعالم كله[٢].

---

(١) محمد علي أبو ريان، مرجع سابق، ص١٠٤.

(٢) محمد علي أبو ريان، مرجع سابق، ص١٠٦.

وذهب اناكساجوراسي إلى أن كل شيء قابل للانقسام إلى مالا نهاية، وإن أصغر أجزاء المادة لا يخلو من آثار لشتى العناصر جميعاً، وإنما تبدو الأشياء على ما هي تبعاً للعنصر الغالب عليها، فمثلاً كل شيء يحتوي على نار، لكننا لا نسمي الشيء ناراً، إلا إذا كان عنصر النار هو السائد.

وهو يختلف عن أسلافه في اعتبار العقل (ناوس) عنصراً أصيلاً يدخل في تركيب الكائنات الحية جميعاً، فيفرق بينها وبين المادة الميتة، وهو يقول أن في كل شيء جزءاً من كل شيء، ماعدا العقل، وبعض الأشياء يحتوي عقلاً إلى جانب شتى العناصر، وللعقل قوة على كل شيء تدب فيه الحياة، والعقل لا نهائي يحكم نفسه بنفسه ولا يخالطه عنصر آخر، فلو استثنيت العقل وحده، وجدت كل شيء يحتوي على أجزاء من الأضداد جميعاً، كالحار والبارد، والأبيض والأسود.

والعقل مصدر الحركة كلها، فهو يسبب حركة دائرية تنتشر في أرجاء العالم، وتجعل أخف الأشياء ينزاح إلى الحافة، وأثقلها يهوي تجاه المركز، والعقل متجانس، فهو لا يختلف سمواً في الحيوان عنه في الإنسان، وإنما ترجع سيادة الإنسان الظاهر إلى أن له يدين، وكل الفوارق البادية بين درجات الذكاء، إن هي في حقيقة أمرها إلا نتيجة لفوارق في الأجسام.

ولهذا نرى أرسطو وسقراط يأسفان على أن أنكساجوراس قد أدخل عنصر العقل في حسابه، لكنه لم يستفد منه إلا قليلاً، فيذكر أرسطو أن أنكساجوراس لم يجعل العقل عنصراً إلا ليتخذ منه سبباً حين تعز عليه الأسباب، وهو لا يحجم عن تفسير الأشياء تفسيراً آلياً إذا وجد إلى ذلك سبيلاً، وأنكر أن تكون الضرورة والمصادفة أصلية لوجود الأشياء ومع ذلك لا تراه يذكر (تدبيراً إلهيا) في فلسفته عن الوجود، والظاهر أنه لم يفكر طويلاً في أمور الأخلاق والدين، ومن المحتمل أن يكون منكراً للآلهة [1].

---

(١) برتراندرسل، ج٢، ص١١٠.

الذريون:

ديمقرطيس : ٤٢٠ ق. م

يعتقد أن كل شيء مكون من ذرات، والذرات لا تقبل الانقسام من الوجهة المادية، وإن لم تكن قابلة للانقسام من الوجهة الهندسية، ويذهبان إلى أن الذرات يفصلها عن بعض فراغ، وأن الذرات يستحيل فناؤها، وأنها كانت منذ الأزل، وستظل إلى الأبد في حركة دائمة، وأن هنالك من هذه الذرات عدداً لا نهاية له، بل لا نهاية لعدد أنواع الذرات التي يختلف بعضها عن بعض شكلاً وحجماً.

ويقول أرسطو أن الذريين يذكرون أيضاً أن الذرات تختلف في درجة الحرارة، فأشدها حرارة هي الذرات الكرية التي يتألف منها النار، وأنها كذلك تختلف في الثقل، وهنا يقتبس من ديمقطريس العبارة الآتية: (كلما كبر حجم الذرة غير القابلة للانقسام ازداد ثقلها).

وقد أنكر ديمقرطيس صراحة إمكان أن يحدث أي شيء بفعل الصدفة، فقد كان يؤمن بأن كل شيء يحدث وفق قوانين طبيعية (فلا شيء يحدث بلا شيء، بل يحدث كل شيء على أساس وبحكم الضرورة).

وقد أراد الذريون أن يفسروا العالم بغير اعتماد على فكرة الغاية أو العلة الغائية (فالعلة الغائية) لحادثة ما، هي حادثة في المستقبل من أجلها حدثت الحادثة التي نحن بصددها فالسببية لابد لها أن تبدأ من شيء، ومادامت قد بدأت، فلا يمكن أن نلتمس سبباً لذلك الشيء الأول الذي عنده بدأت، فقد تنسب العالم إلى (خالق) لكنك في هذه الحالة نفسها لابد أن تترك (الخالق نفسه) بغير تعليل.

وذهب ديمقرطيس لأن هناك إدراك بالحواس وإدراك بالعقل، والإدراكات التي من النوع الثاني لا تعتمد إلا على الأشياء المدركة، بينما إدراكات النوع الأول تعتمد إلى جانب ذلك على الحواس، لذا فهي معرضة للخداع.

وأوضح ديمقرطيس أن النفس تتركب من ذرات، والتفكير عملية فيزيقية، وليس للكون في رأيه غاية ينشدها، إذ ليس هناك إلا

ذرات تسير بمقتضى قوانين آلية، ولم يؤمن بالديانة الشعبية.

وفي الأخلاق اعتبر البهجة غاية الحياة، وعد الاعتدال والثقافة خير وسيلتين تؤديان إلى تلك الغاية، وكره كل ما يتصف بالعنف وحده العاطفة، ولم يشجع على الاتصال الجنسي لأنه ينطوي على طغيان اللذة على الإدراك الشعوري طغياناً ساحقاً، وكان للصداقة عنده قيمة كبرى، لكنه أساء الظن بالنساء ولم يرغب في أن يكون له أبناء، لأن تربيتهم تعطل الفلسفة[1].

كان ديمقريطس مقتنعاً بموقف بارمنيدس في نفي التغير المركب ولكنه أراد في نفس الوقت أن يفسر حركة الأشياء المركبة، ويبين كيف تأتي إلى الوجود وكيف يبطل وجودها. وقد سلم ديمقريطس بأن الملاء والخلاء معاً هما المكونان الأساسيان للأشياء، وينقسم الملاء عنده إلى أجزاء لا حصر لها، يسميها الذرات أو (الأجسام الكيفية) ولا تستطيع رؤية كل منها على انفراد نظراً لدقة حجمها، ويفصل هذه الذرات بعضها عن البعض الآخر فجوات في الخلاء، ولكل ذرة لا يمكن أن تقبل الانقسام لأنها لا تحتوي على خلاء في تكوينها الداخلي، وهذه الذرات لا بدء ولا نهاية لوجودها، وهي متشابهة في طبيعتها، وتختلف فيما بينها من حيث الشكل والحكم، ولا تقبل من التغيرات سوى تغير الحجم، دون التغير الكيفي، أما الكيفيات المتعلقة بالجسم فهي نتيجة لاختلاف ترتيب الذرات وأوضاعها وأحجامها وأشكالها ويفسر ديموقريطس التغير في الوجود على إنه اتصال الذرات أو انفصالها بالإضافة إلى التغيرات التي تطرأ على أوضاعها وتنظيمها على

---

(١) برتراندرسل، ج١، ص١٢٣.

صورة معينة في الأجسام.

والنفس عند ديمقريطس تتألف من ذرات شبيهة بالذرات النارية في شكلها وحجمها، ذات طبيعة لطيفة، تسري في الجسم كله، وبعد الموت تتبدد هذه الذرات وتتلاشى تركيبها. وعلى الرغم من أن النفس مادية في تكوينها إلا أنها مع هذا أشرف جزء في الإنسان، وهي الجزء الإلهي فيه [1].

السفسطائيون

وجه السوفسطائيون أنظارهم إلى الإنسان وإلى معرفته، بعد أن كان نظر الفلاسفة موجهًا إلى الموضوع الخارجي، على أن هذا الاتجاه الجديد لا يرجع إلى عامل فكري فحسب، بل يرجع إلى عدة عوامل سياسية واجتماعية نشأت في المجتمع اليوناني في ذلك العهد، فقد كانت الديمقراطية الأثينية قد بلغت أزهى عصورها، وكان لابد للسياسي الديمقراطي من أن يتصف بالقدرة على الجدل والمناقشة ومنازلة الخصوم، والدفاع عن الآراء صحيحها وكاذبها، وأحس السفسطائيون أنهم أجدر الناس بتعليم هذه الصناعة، فتولوا مهمة تدريب الشباب على الجدل لإعدادهم للعمل السياسي، وذلك نظير أجور تختلف بحسب أصل المتعلم وثرائه.

وكذلك فقد كان للحروب المتعاقبة-حروب داخلية وحروب بين اليونان والفرس-كان لذلك أثر كبير في زعزعة ثقة المواطنين بمفهوم (الدولة الإلهية)، وبالإضافة إلى هذا كان اليونان قد اتجهوا إلى كثرة الترحال، فتكونت لديهم ملكة النقد للعادات والتقاليد، وأكدوا على نسبية المعرفة والأخلاق ونسبية العادات والتقاليد.

---

(١) محمد علي أبو ريان، مرجع سابق، ص١١٠.

وقد حاول السوفسطائيون تحقيق غاياتهم بطريقتين، تعليم الشباب، وإلقاء المحاضرات العامة بطريقة مبسطة شعبية، ويعلمون الشباب الخطابة ووسائل التغلب السياسي والبراعة في منازلة الخصوم، وذلك لقاء أجور نقدية.

بروتاجوراس: ٤٨١-٤١١ ق.م

وهو القائل بأن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً، ذلك لأنه هو الذي يحكم على الموجودات بأنها موجودة، وعلى غير الموجود منها بأنه غير موجود.

وإذا فصلنا هذا القول لبروتاغوراس وجدنا أنه يتضمن دعوى خطيرة، إذ أنه ينقل مشكلة المعرفة من الموضوع إلى الذات العارفة.

وكان بروتاجوراس يرى أن القدرة على التعليل لإقناع الآخرين وإفحام الخصوم تحتاج إلى تدريب وممارسة بالإضافة إلى ضرورة توافر بعض المواهب الطبيعية. فقد كان بروتاجوراس يهتم بالفن الجدلي ويرى أن المهارة والتمرس فيه شرط أساسي للنجاح في الحياة العامة، ولا يتحقق هذا إلا باستخدام جميع الوسائل سواء كانت أخلاقية أم غير أخلاقية[١].

وقد أوضح بروتاجوراس أن القوانين والعادات والأخلاق نسبية، وإن معيار الصحة لهذه النظم والقوانين هو المجتمع الذي تطبق فيه، ولا يمكن أن يطالب الأخلاقيون بمعيار مطلق للخير والشر، كذلك المنطقيون لا يمكن أن يطالبوا بمعيار مطلق للصواب والخطأ. وأخيراً فإن الجماليين ليسوا على صواب في زعمهم بأن لديهم معياراً للجمال والقبح، كذلك هؤلاء الذين يقيمون العدالة لا يستطيعون أن يقولوا أن هناك أساساً مطلقاً للعدالة، فالعدالة كالأخلاق، نسبية، فما هو عدل عند شعب يجوز أن يكون ظلماً عند شعب آخر، وكذلك فإن الدين ليس مطلقاً.

---

(١) محمد علي أبو ريان، مرجع سابق، ص١١٨.

جورحياس ٤٨٣ – ٣٧٥ ق.م

وضع ثلاث قضايا رئيسية:

١. لا يوجد شيء على الإطلاق.

٢. وحتى إذا وجد شيء فلن يمكن معرفته.

٣. وحتى إذا عرف الشيء فلا يمكن إيصال هذه المعرفة إلى الآخرين لأنها معرفة نسبية، لأن اللغة وهي وسيلة إيصال هذه المعرفة ليست مطلقة، إذ اللفظ الواحد تحتمل عدة معان، ومما يجعل من السهل التلاعب بالألفاظ.

وأشار إلى أن جميع الفضائل وكذلك سائر الموجودات نسبية وغير مطلقة، وأشار إلى أن لكل من المرأة والرجل والطفل والمراهق والعبد والحر، لكل منهم فضيلته الخاصة به، فكان ليس هناك مفهوم عام للفضيلة فهي نسبية.

كما أشار كاليكليس بنظرية (الحق للاقوي) وبحسب هذه النظرية تصبح الأخلاق والقوانين من عمل الضعفاء من الناس وهم أغلبية أفراد المجتمع الذين يريدون لهذه القوانين أن يكبحوا جماح الأقوياء، فيطيلوا الكلام عن نظريات العدالة وأساس العرف والقانون والتقاليد وما تحكم به الأخلاق.

كل هذا الغرض واحد وهو السيطرة على الأقوياء وانتزاع الحق والمنفعة والسلطة عن أيديهم، وكذلك أشار كريتاس في أن القانون ما هو إلا أداة شعبية لترويض الأقوياء، أما الدين فليس إلا اختراعاً لبعض الأذكياء وكشفوا فيه عن قوة خفية جبارة لا وجود لها في الواقع ويسمونها بالغيب [١].

بروتاجوراس ٥٠٠ ق. م

لفظ (سوفسطائي) لم يكن لها معنى مرذول في أول أمرها، إذ كان معناها أقرب ما يكون إلى ما نعنيه نحن اليوم من كلمة (أستاذ) فقد كان السوفسطائي يكسب عيشه بتعليم الشباب بعض الأشياء التي كان يظن أنها قد تنفعهم في الحياة العملية، ولما لم تكن الدولة عندئذ تخصص من مالها شيئاً لمثل هذا التعليم، فقد

---

(١) محمد علي أبو ريان، مرجع سابق، ص١٢٢.

جعل السوفسطائيون يعلمون من كان في مقدورهم أن يدفعوا أجور تعليمهم من أموال والديهم، وقد أدى ذلك إلى خلق شعور بالفوارق بين الطبقات.

وقد كانت الديمقراطية هي المذهب الذي ظفر بالنصر السياسي في أثينا وغيرها من المدن إلا أن ذلك لم يحد من ثروة أولئك الذين كانوا ينتمون إلى الأسرات الأرستقراطية القديمة، فقد كان الأغنياء هم الذين يحتضنون الثقافة التي تطلق عليها اليوم الثقافة (الهلينية) إذ كان هؤلاء الأغنياء يتمتعون بالتعليم وبالفراغ، فما كان يسميه اليونان بالديمقراطية لم يؤثر قط في نظام الرق عندهم، ذلك النظام الذي مكن الأغنياء أن يتمتعوا بثرائهم دون أن يرهقوا مواطنيهم من الأحرار.

وفي كثير من المدن – وفي أثينا بصفة خاصة- كان الفقراء يحسون إزاء الأغنياء عداوة مضاعفة عداوة بسبب الحسد وأخرى بسبب الحرص على التقاليد. فقد كانوا يفرضون في الأغنياء أنهم خارجون على الدين والأخلاق، فقد كانوا يقلبون العقائد القديمة رأساً على عقب، وفي هذا المناخ ظهرت جماعة السوفسطائيين لتعلم الناس فنون المهارة الخطابية للدفاع عن أنفسهم ضد التهم التي توجه إليهم مثل تهم الخروج على الدين وإفساد الشباب.

وقد اعترض أفلاطون على السوفسطائيين كيف يتقاضوا أجراً على التعليم، ذلك أن أفلاطون نفسه كان له من ماله الخاص ما يكفيه، والظاهر أنه لم يستطع أن يشعر بشعور أولئك الذين لم يكن مثل حظه، ولم تلجئهم ضرورات الحياة إلى أخذ الأجور.

يضاف إلى ذلك أن السوفسطائيين اختلفوا عن الفلاسفة في أنهم لم يدافعوا عن مذهب معين، ولكن كان هدفهم أن يعلموا الناس فن النقاش، وأن يبينوا لتلاميذهم كيف يمكن أن يدافعوا عن الرأي أو يدحضوه، ولم يكن يعنيهم أن يدافعوا عن آراء معينة يعتنقونها هم[1].

وقد اضطهد بروتاجوراس لخروجه على الدين فيقول:

---

(١) برتراندرسل، ج١، ص١٣٠، ١٣١.

(أما عن الآلهة فلست أراني على يقين من وجودهم أو عدم وجودهم، ولا من شكلهم كيف يكون، ذلك لأن ثمة أشياء كثيرة تعوق المعرفة اليقينية، وهي غموض الموضوع وقصر الحياة البشرية.

ويذهب بروتاجوراس إلى أن الإنسان مقياس كل شيء، فهو مقياس أن الأشياء الموجودة موجودة وأن الأشياء غير الموجودة غير موجودة. ويفسر هذا القول بأنه يعني أن كل إنسان هو مقياس الأشياء جميعاً، وأنه إذا اختلف الناس، فليس هناك حقيقة موضوعية يمكن الرجوع إليها لتصويب المصيب وتخطئ المخطئ، والمذهب في جوهره مذهب متشكك، وهو في أغلب الأحوال مبني على خداع الحواس.

وذهب جورجياس إلى (لاشيء موجود) وأنه إن وجد شيء فليس هو يمكن المعرفة وأنه حتى لو فرضنا جدلاً أن ثمة شيئاً موجوداً، وإن شخصاً ما أتيح له أن يعرفه، فيستحيل عليه أن ينقله إلى الآخرين، ولسنا ندري الآن ما إذا كانت أدلته على رأيه هذا، لكنني أستطيع أن أتصور في وضوح أنها كانت أدلة قوية من الوجهة المنطقية، ألزمت معارضيه إلزاماً أن يحموا أنفسهم بدرع من الدعوة إلى الإصلاح.

إن البحث عن الحقيقة حين يصدر عن إخلاص تام، لابد أن يغض النظر عن الاعتبارات الخلقية، فليس في مستطاعنا أن نقدر مقدماً أن الحقيقة التي نسعى وراءها ستجيء مؤيدة لأهواء الناس في مجتمع معين، وكان السوفسطائيون على استعداد أن يتابعوا الحجاج حيث تسوقهم الحجة، وكثيراً ما ساقهم الحجة إلى التشكك.

وفي الكتاب الأول من الجمهورية يحاج ثراسيماكوس بأنه لا معنى للعدل إلا مصلحة الأقوى، وأن القوانين تسنها الحكومات لمصلحتها، وأنه ليس هناك مقياس موضوعي تلجأ إليه إذا ما نشب نزاع على السلطان. وكذلك اعتنق كالكليز –فيما يروى أفلاطون في محاورة جورجياس-مذهباً شبيهاً بهذا، إذ قال: إن قانون الطبيعة هو قانون الأقوى، لكن الناس أرادوا لأنفسهم راحة البال، فأقاموا

من النظم الاجتماعية ومن المبادئ الخلقية ما يشمل القوى[1].

سقراط:

انتصر سقراط للروح على البدن، واحتقر نعم الحياة الدنيا، وازدراء الترف والخير الأسمى هو الفضيلة وأن الإنسان لا يفقد فضيلته بأسباب خارجية.

ويقرر سقراط بأنه لا يعلم شيئاً، وأنه أحكم من غيره في شيء واحد، وهو علمه بأنه لا يعلم شيئاً غير إنه لا يعتقد أن المعرفة مستعصية على التحصيل، بل هو على عكس ذلك يرى أن البحث عن المعرفة أهم ما يهتم له الإنسان، وهو يذهب إلى أن أحداً من الناس لا يقترف الخطيئة عامداً، ولذا فلا يعوز الناس إلا المعرفة لكي يكونوا جميعاً على فضيلة كاملة.

إن العلاقة الوثيقة بين الفضيلة والمعرفة مما يميز سقراط[2].

ويتألف المنهج السقراطي من مرحلتين هما مرحلة التهكم ومرحلة التوليد.

أ. أما التهكم فمعناه أن يبدأ سقراط بتوجيه سؤال إلى محدثه ويتظاهر بالجهل والسذاجة وكأنه لا يدري من أمر نفسه شيئاً، وذلك حتى يثير في نفس مجادلة الشعور بالزهو والخيلاء فيحس بأنه أعلى منزلة من سقراط، وأقدر في الرد عليه، ويتراءى له سقراط في هذه اللحظة كرجل ضعيف النظر ضحل التفكير. ولكن شخصيته الحقيقية تبدأ في الظهور حينما يأخذ الخصم في الإدلاء بآراء سقيمة غير متناسقة. وسرعان ما يتناول سقراط –في حرية لاذعة- ما يعرضه الخصم من تعريفات للموضوع. حتى يشعر الخصم بأنه غير قادر على أن يستمر بعد ذلك في مناقشة سقراط فيكتفي بأن يتلقى منه وأن

---

(١) برتراندرسل، ج١، ص١٣٣.

مزيد من التفاصيل انظر:

==أميرة حلمي مطر، الفلسفة عند اليونان، دار مطابع الشعب، ١٩٦٥.

(٢) برتراندرسل، ج١، ص١٥٠.

يقف منه موقف الطالب من أستاذه. وعندما ينتهي سقراط من تطهير نفس خصمه من المعارف المشوهة التي تلقاها في المجتمع يبدأ مرحلة جديدة وهي التوليد.

ب. وفي مرحلة التوليد نرى سقراط وهو يعيد بناء المعرفة على أسس جديدة بعد أن طهر نفس محدثه من الأوهام والآراء المزيفة. وقد قيل إن سقراط –باستعماله لأسلوب التوليد- كان يمارس فكرياً الصناعة التي كانت تزاولها والدته، إذ أنه هو أيضاً كان يولد الأفكار من نفوس محدثيه، ومعنى هذا أن الأفكار كانت موجودة في فطرة الناس، أي أن الأطفال يولدون في نفوسهم العلم الفطري، فالعلم عند سقراط أولي سابق على التجربة Aprioi ويقتصر أثر التعلم على المدرسة أو الجدل في السوق على إيقاظ النفس، فيذكرها بهذه المعاني النظرية التي كانت موجودة فيها قبل ميلادها الأرضي، وكانت قد حصلت عيلها من عالم آخر وهو عالم المثل. فالتعلم إذن ليس إلا تذكر. وأما أساليب الجدل المختلفة فهي تساعدنا على استرجاع المعاني وهذا هو معنى توليد سقراط لأفكار محدثيه.

ويشير سقراط إلى خلود الروح، فالخلود هو ثمن حياة النفس الفاضلة على سطح الأرض، وأن هذه النفس حينما تغادر الجسد سرعان ما تغمرها السعادة الدافقة لأنها ستحيا إلى جوار الآلهة في العالم العقلي، فكأن السعادة عند سقراط ليست في هذه الدنيا، ولكنها في عالم عقلي لا يمكن التسليم بوجوده إلا إذا سلمنا بخلود الروح[1].

أفلاطون ٤٢٧ ق. م

اهتمام أفلاطون لم يكن موجهاً إلى الإنسان كفرد فحسب، بل أيضاً ككائن اجتماعي يعيش في ظل نظام سياسي معين، ولهذا فقد كان من الضروري أن يفسر السلوك الفردي للإنسان، وكذلك الصورة الاجتماعية والسياسية لنشاطه في علاقاته مع الآخرين، غير أن أفلاطون كأستاذة سقراط كان يعتبر النفس أسمى من الجسد، بل يعتبرانها حاصلة على الوجود الحقيقي، أما البدن

---

(١) محمد علي أبو ريان، مرجع سابق، ص١٤٢.

فوجوده ثانوي وغير مؤكد.

فالنفس أبدية أزلية لبساطتها وعدم فسادها وتذكرها المعاني، وهي تلحق بالجسم في العالم الأرضي، ويرى أفلاطون أن النفس تأتي إلى العالم الحسي وهي طاهرة نقية، وأن هبوط النفوس إلى الأرض يتم حسب ضرورة عالمية، فالجسم مطية مؤقتة للنفس، وهو الذي يعطل قواها الروحية النبيلة ويوجهها وجهة غير أخلاقية لأنه مصدر الشرور والآثام، ولهذا فالنفس تشقى بهذا الوجود الأرضي، وتعود فتحاول الانطلاق من محبسها لتصعد إلى العالم المعقول، ولذلك فإن خير الأفعال هو ما يساعد النفس على الوصول إلى العالم الأسمى وأفضل النظم السياسية هي ما يهيئ النفس لهذه الحياة الروحية ويكفل لها السعادة التي تستهدفها من ممارسة حياة الفضيلة والحكمة.

والفضائل عند أفلاطون أربع، وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة، ووظيفة العدالة أن تحفظ النظام والتناسب بين الفضائل الثلاث الأولى. فالحكم فضيلة العقل والعفة فضيلة النفس الشهوانية، وأما الشجاعة فهي وسط بينهما وهي فضيلة النفس العصبية، فإذا ما تحقق التوازن أي العدالة بين قوى النفس وفضائلها حصلت النفس على السعادة.

وهذه العدالة هي حالة باطنية عقلية أخلاقية تتجاوب مع النظام في العالم المحسوس، ويبدو فيها جمال النفس في سيطرتها على شهوات ورغبات الجسد. فأسمى الملذات هي فضيلة العقل أي الحكمة، وفيها يكمن خير الإنسان وسعادته.

فالجسم هو سجن النفس ومحبسها ولا مناص لها من

التحرر من أغلاله والانطلاق إلى العالم الأعلى إلا بالتطهر والمجاهدة أي باتزان النفس وممارستها للفضائل والحكمة [1].

المجتمع الطبيعي وتطوره:

إذا كان السفسطائيون قد ذهبوا إلى أن تكوين المجتمعات الإنسانية إنما تقوم على التعاقد بين الأفراد وليس على أساس طبيعي غريزي، فإن أفلاطون كان يرى على العكس من ذلك أن الإجماع البشري حاجة طبيعية لا تحتاج إلى إرادة التعاقد بين بني البشر، ذلك لأن الفرد لا يمكن أن يحيا إلا في مجتمع سواء كان هذا المجتمع هو الأسرة أم المدينة، والمجتمع المثالي هو الذي يطابق النظام الطبيعي في البساطة والصلاح، ولكن مثل هذا المجتمع لا يوجد لأن المجتمعات تقوم على نظم فاسدة متدهورة. ويقول أفلاطون إن المجتمعات تطورت من البساطة إلى التعقيد، فيقول إن المجتمع الطبيعي كان يتألف من عدة أسر مجتمعة معاً بقصد إشباع حاجاتها الأولية من مأكل وملبس ومسكن، ولكن الإنتاج سرعان ما يتزايد ويتحسن ويصبح أكثر مرونة بفضل تطبيق نظام تقسيم العمل فيشيع التخصص وتتمايز الحرف و المهن، فيظهر في هذا المجتمع البسيط حدادون وصناع الأحذية ونجارون ورعاة، ولكل منهم عمله الخاص به. ولما كان مثل هذا المجتمع لا يستطيع أن يكفي ذاته بذاته من حيث السلع الاستهلاكية، لذلك فهو يتجه إلى الاستيراد، ومن ثم فهو مساق إلى تصدير منتجاته لكي يغطي أثمان ما يستورد من سلع، وتظهر الحاجة حينئذ إلى وسطاء يقيمون سوقاً للتبادل التجاري ويكون نقداً للتعامل على أساسه، وهكذا يظهر التجار صغارهم وكبارهم، ويلزم هذا المجتمع أيضاً طائفة من الإجراء والعمال الذين يساندون المقيمين في عملياتهم بعد أن يتزايد الإنتاج. وكذلك يتطلب الوضع الجديد تشكيل قوة عسكرية من الجنود المحترفين للدفاع عن المجتمع وحمايته من غدر المجاورين

---

(١) محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي، مرجع سابق، ص٢٦٧.

مزيد من التفاصيل انظر أفلاطون، الجمهورية، ترجمة حنا خباز، مطبعة المقتطف، ١٩٢٩.

له. ويستمر هذا المجتمع في حياته البسيطة ولكن سرعان ما تزداد حاجات الأفراد وتتشعب مطالبتهم، فتحدد أنواع الأطعمة والشراب فيتحول الناس عن الغذاء النباتي، وكذلك تظهر الثياب الفاخرة، والحلي العاجية والذهبية، وتزدهر الفنون الكبرى كالرسم والموسيقى والشعر والمسرح والرقص، ويحتاج الناس إلى الخدم، وهذا التضخم في المطالب يولد رغبة في التوسع وفي إجراء التغيرات السريعة، فتتداخل النظم ويتفشى الفساد نتيجة للتكالب على الرفاهية المبالغ فيها، ويكون نتيجة لذلك أن يتعقد نظام المجتمع ويرى فيه الانحلال ويصبح مجتمعاً غير طبيعي[1].

---

(١) محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي، مرجع سابق، ص٢٧٦.

مزيد من التفاصيل انظر:

عبد الرحمن بدوي، أفلاطون، خلاصة الفكر الأوروبي، مكتبة النهضة العربية، ١٩٥٤.